غطاس البحرية

غطّاسُ البَحْرية

رحلات، ومغامرات بحرية.

بقلم

أحمد القاسمي

- عنوان الكتاب: غطاس البحرية.
- المؤلف: أحمد القاسمي.
- الهاتف: **0661707826.**
- البريد الإلكتروني: elkacimiahmed63@gmail.com
- رسم الغلاف: علال أجليل.
- رقم الإيداع القانوني (Dépôt Légal): 2024MO4762
- الرقم الدولي المعياري للكتب (ISBN): 978-9920-28-785-2
- طبع: مركز النسخ الخوارزمي؛ الدار البيضاء؛ البريد الإلكتروني:
edi.algorismi@gmail.com

الطبعة الأولى: 1446هـ؛ الموافق 2024م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

غطّاس البحرية يروي رحلاتِه، ومغامراتِه البحرية...

تمرين السباحة الأول

لم أر البحر قط في حياتي؛ فقد فتحت عيني وأنا رضيع على نور الشمس؛ في مدينة تبعُد عن ميناء (الدارالبيضاء) –الذي ترسو المراكب البحرية بأحد أرصفته خُصّص لهذا الغرض على ساحل المحيط الأطلنتي– بمائتين وثمانين كيلومترا؛ اسمها (وادزم)[1]؛ في وقت كانت فيه وسائل النقل نادرة. كانت خلايا أنفي لا تمتص شيئا آخر غير رائحة نباتات تلك البلاد الربيعية؛ حين تسطع عليها أشعة شمس لافحة، والأزهار البرية كالأقحوان، والياسمين، وشقائق النعمان، وروث الأنعام والدواب؛ عندما كانت تصطحبني أمي في زيارة إلفية إلى بيت جدي في البادية، ورائحة أتربة الأرض؛ عندما يبللها ماء المطر؛ الذي ينزل غالبا بغزارة في فصول شتاء تلك المنطقة، ورائحة خبز يُطْهى على وقود؛ مُكوناته روث الأنعام والدواب في كانون[2]؛ بُني بالتربة نفسها؛ ولم يكن أول عهدي برائحة أعشاب أعماق البحر وطحلب صخور الشاطيء والسمك؛ إلا عندما التحقت بالبحرية، وسيكون لهذا شأن معي؛ سيأتي ذكره.

فكان أول ما فكرت فيه؛ للالتحاق بإحدى ثكنات الجيش البحري التي تراصت على جانب شارع (السور الجديد) بمدينة الدارالبيضاء؛ هو الوسيلة التي سأركبها لقطع تلك المسافة التي ذكرتها آنفا؛ وليس في جيبي درهم واحد، فلم يطل بي التفكير؛ فغير

[1] مدينة تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة (الرباط) العاصمة بـ 166 كيلومترا.
[2] موقد طهي الخبز ويشكل من الطين والحجارة.

بعيد عن بيتنا بحي (القْريعة)[3] هناك في الجنوب الشرقي من المدينة محطة القطار، سأركب إحدى عرباته دون أن أدفع سنتيما واحدا؛ كيف؟

في العقد الثالث من القرن العشرين؛ شمر عمال في مدينة (خريبكة)؛ عن سواعدهم، وبدأت معاول ممسكة بها أيديهم القوية؛ في إزالة أتربة للكشف عن خام الفوسفاط؛ الذي سيغدو به المغرب بعد حين أول دولة في العالم مصدرة لهذه المادة؛ ولنقلها إلى أرصفة ميناء الدارالبيضاء لتُشحن إلى أرجاء العالم عبر البحر؛ مُدَّت سكة حديد؛ فكانت هذه في نفس الوقت جالبة خير لسكان المنطقة؛ فنقلت أيضا ما يحتاجون إليه من وسائل في فلح الأرض، وفي حياتهم اليومية، وما يُتاجرون فيه من بيع وشراء؛ فنُقل عليها الحمير والبغال والأحصنة، ولتنظيم حركة مرور القاطرات والعربات لا بد من محطة أخرى؛ فأُنشأت هذه في مدينة وادزم، التي لا تبعد عن خريبكة؛ إلى الجنوب من هذه؛ إلا بثلاثة وثلاثين كيلومترا، ففي آخر قطار شحن الفوسفاط الطويل عربة خشبية؛ كانت هي الوسيلة التي سأركبها دون أن أدفع ثمن تذكرة.

لم تكن الأرض القريبة من محطة سكة الحديد ممهدة؛ فحُفر خندق طويل وعميق؛ لمد سكة الحديد والمحافظة على أفقيتها؛ فصارت له أجراف جانبية عالية؛ فكان هو المكان الذي سيواريني عن الأنظار بعد أن يزحف القطار؛ مغادرا المحطة؛ فالتصقت بجدار الجرف، ومرت القاطرة تجر صفا طويلا من العربات؛ والجميع يدك الأرض

[3] أحد احياء مدينة وادي زام القديمة.

دكا بالعجلات الحديدية؛ فما إن صارت العربة الخشبية المجرورة أدنى مني؛ حتى جريت وقفزت بخفة قط إلى داخلها؛ حاملا حقيبة حوائجي؛ فوجدت تبنا هو ما فضل عن وجبة أكل حمار أو بغل أو حصان؛ فتمددت عليه، والعربة تهتز بي آهتزازا، وبقيت يقظا؛ مترقبا لأية حركة تباطؤ للقطار؛ يعلن توقفا بإحدى المحطات، ومعاينة من طرف المراقبين، وقد تخللت رحلتي عمليات أقوم بها من حين لآخر؛ أغادر العربة عندما أسمع وقع أقدام؛ فأنزل إلى الأسفل مندسا بين قضبان هيكل العربة مُتشبثا، أو أتوارى جانبا، وفي الوقت الذي تبدأ فيه العجلات بالدوران تعلن تحرك القطار؛ أعود فأتسلق حاشية الباب الحديدية؛ التي أدمت ساقي؛ فأكون مرة أخرى مُفترشا ذلك التبن الذي تفوح منه رائحة البهائم.

قد أرتكب خطأ إذا ما آستسلمت للنّوم، فأجدني فجأة –وقد أيقظتني نأمة أو صوت حركة ما داخل محطات الدارالبيضاء، وهي حصون؛ دعائمها من قضبان الحديد والأسمنت– بين أيدي المراقبين وأنا غريب الهيئة؛ من تلك البلاد البعيدة؛ التي يُجلب منها خام الفوسفاط؛ فغادرت عربة القطار في إحدى المحطات المنعزلة في الخلاء، وتابعت طريقي سيرا على الأقدام، وبت ليلتي الأولى بمدينة الصخب بين صخور رصيف تكسير الأمواج.

في الغد من شهر يناير؛ سنة 1963م؛ قدمت أوراق هويتي إلى الحارس الممسك بسلاحه، والواقف بالباب الرئيس للثكنة العسكرية. تفحّصني بعينين ثائرتين؛ ثم سلمني إلى آخر يمُصّ دخان سيجارته في خُيلاء بمصفاة صفراء؛ خطا وهو ممسك بذراعي؛ بوَطآت محكمة؛ تدق الأرض المبلّطة؛ فيُسمع لها صوت متتابع يثير

الرهبة في داخلي، أنا القادم من بعيد؛ من أفضية الحرية والانطلاق؛ حيث كنت أنصب فخاخا لعصافير (الجوش)[4]، والقُبرات؛ بين سيقان السنابل؛ المجزوزة بمناجل الحصادين؛ في أراض محصودة؛ وممتدة على مدى البصر.

بعد ذلك خضعت لفحوص طبية؛ فكانت المناداة بآسمي تتردد في بداية كل مرحلة؛ والأوراق تُسوّد بسرعة وبعنف؛ بأقلام حبر ممسكة بها أصابع متمرسة؛ ثم دفع بي واحد أمامه في ممر طويل؛ من أولئك ذوي البَزز الزرقاء، والكتفيات، والقبعات المنتصبة فوق رؤوسهم بتيه؛ كأنها أعراف دِيَكة، فتقدمته لأجد نفسي في إحدى اللحظات أدخل قاعة؛ وجدت فيها شبان في مثل سني؛ يجلسون إلى طاولات؛ فأدركت أنها فصل للدرس النظري؛ الذي ألقاه أستاذ في موضوع الغوص؛ ليبدأ في اليوم التالي درس تطبيقي في السباحة.

كنا جميعا بشعور شعثاء، ووجوه غبراء، وخدود طافحة بالدم، مِنّا من برزت عروق أديمه بسائل قانيء؛ وهذا كله آثار بيئة البوادي المشمسة، والأجواء الصافية النائية، وينم عن أجسام سليمة؛ لم تمسسها علل أو أوبئة.

والأرجح أن شعورا واحداً؛ كان يُراودنا جميعا، وهو كيف سنواجه البحر الذي تتلاطم أمواجه، وبرودة مياهه، وكيف ستكون أعماقه. لعلي كنت أكثرهم همّا بهذه الأسئلة؛ ذلك أنني وُلدت في منطقة ليس بها نهر أو بحيرة؛ أكون قد غطست في مياههما؛ فقط آبار يزيد عمقها عن الثلاثين مترا؛ يُسقى منها.

[4] نوع من الطيور يعرف بهذا الإسم في هذه المنطقة؛ بالعربية الدوري؛ بالفرنسية Le moineau.

ثم ذهبوا بنا إلى حلاقين عُدّتهم الموسَى، وماكينات جزِّ الشعر؛ فلم أكن أسمع غير صوت كشط شعر الرؤوس وزغب الذقون؛ والخصلات تتساقط بكثرة؛ فنبرح المكان، وكأننا نسخ لأصل واحد؛ نُحْتِحِت بقايا الشعر عن أثوابنا.

في صباح اليوم التالي؛ برح ضابط البحرية مكتبه، ومساعدوه في أثره، وكنا نحن قد آنتظمنا في صف، وبعد صيحات آمرة، ومناداة بالانضباط؛ سار الضابط بتُؤدة؛ تتفحصنا عيناه اليقظتان؛ ثم أمر؛ فقاد أحد جماعتنا صوب رصيف من أرصفة الميناء؛ تستند إليه زوارق، وبوارج، وفرقاطات؛ فوصل إلى مسامعنا هدير محركات إحداها؛ فأدركنا أنها الفُلك الذي سنُحمل فيه للقيام بأول تمرين في السِّباحة.

كان الرصيف يبتعد؛ فظل ناظري مشدودا إليه؛ فترنح الغرباء؛ لأن المركب تهادى وصار يتمايل، ولم يستقر أبدا؛ فأطبق دوار البحر على الرؤوس؛ كان ابتعاد الرصيف حركة ظاهرية؛ فالمركب هو الذي كان يغادر المرسى في الحقيقة، ورأينا أحدنا ينكفيء على نفسه ويتقيأ؛ فانفغرت أفواهنا؛ تلفظ ما بأمعاءنا؛ ثم شاهدنا بحارة يجلبون ركاما من حبال مفتولة بإتقان، ويبسطونها على طول المركب وعرضه؛ فيسوقون الواحد منا، ويربطون طرف حبل من تلك الحبال على خصره، ويقف النفر الأول على حافة المركب، وقد أُعلموا بأنهم سيلقون بأنفسهم إلى البحر عند إشارة ما؛ بدون تردد أو تراجع.

– ألا تعرفون إن كَرَّ واحد منكم؛ فهذا جبن في عُرف من يحاربون في أرض المعركة؛ فإنه يُستقدم أمام كتيبة الإعدام؟

هكذا نطق القائد البحري.

فآرتعدت فرائسنا، تركنا الهزل، و رُمْنا الجد مرغمين. وليت وجهي إلى الوراء لأتبين بنايات المدينة؛ فلم أر غير ضباب البحر الكثيف؛ سيكون ذلك الحبل؛ هو الذي ستُفك عقدته بعد حين؛ من حول خصري، وقد تمرنت على الخوض سباحة وغوصا في مياه البحر؛ إن لان هذا البحر، فذلك يحدث لبعض الوقت؛ ثم يثور بلا هوادة وبلا رفق؛ فتقضي في أعماقه؛ تتأسى عليك القلوب؛ ففي أول غطسة لي تجرعت ماء البحر، فخدشت مُلوحتُه حنجرتي، وغاص جسدي؛ فأردت التشبث بشيء ما ليبقى رأسي خارج الماء؛ مستنشقا الهواء؛ فلم يكن غير الماء؛ لا يمسكني منه شيء؛ فحاولت أن أمتطيه، وهل الماء مطية؟

فتناهت إلى مسمعي ضحكات، ونظرت إليهم في توسل؛ فشُدّ الحبل في إحدى اللحظات؛ فجُذِبت، ورفعوني من البحر المحيط، وكاد أن يغمى علي، وتكرر التمرين، وفي اليوم التالي خُيِّرنا بين أن نلقي بأنفسنا أو نُلْقى من طرف بحارة أشدّاء.

وفي مساء اليوم الثالث؛ وعندما كان مركب التمرينات في طريق العودة؛ سمعت آثنين يتحدثان؛ قال الأول:

- سنُلقى مِنْ...

وكأني سمعت شيئا غريبا على أذني...

فقال الثاني:

- ماذا تقول؟ أهذا صحيح؟

فأسرعت في طرح سؤالي على الأول:

- أعد؛ حفظك الله ما قلت.

قال:

– سيُقذف بنا إلى البحر، ونحن نرتدي عدة الغوص؛ البذلة العازلة، وقنينة الأكسجين، وأنبوبا عب الأسجين، وثقالات الرصاص، والقناع الزجاجي، والزعنفتان؛ من حوَّامة تحلق في الجو.

فوقفنا جميعا في جمود؛ لا يكاد الواحد منّا يقول شيئا.

الأميرة وجزيرة الماس

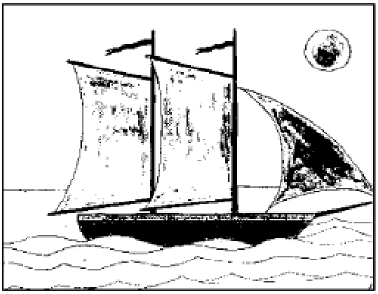

في يوم من الآحاد ساد الحيّ هدوء كالعادة، وأشرقت شمس الربيع من عتمات فصل الشتاء؛ تُضيء الدنيا في رفق وببطء؛ كأنها أَبلت بعد مرض طويل. كان ابني البكر ما يزال يحبو؛ هنا وهناك؛ يُمسك بفمه رضاعة الحليب؛ يُطوّح بها بحركات من رأسه؛ فيجلس على عجيزته، ويتناولها مرة أخرى؛ فيدس حلمتها الاصطناعية في فمه؛ يرضع ثُمالتها؛ وأنا على أثره كلما توغلت به أرض البيت المزلجة؛ في ركن ما؛ وقد تخفف بالي من الالتزامات؛ وجسدي من زي البحرية الرسمي؛ لابسا قميصا طويلا خفيف الثوب؛ واسع التصميم، وغير بعيد هناك؛ اِفترشت والدتي رحمها الله جلد خروف كث الصوف، رفعت أكمام فَوْقِيتها عن ذراعيها بالشَّمّار؛ تُحول قطعة صوف ناصعة البياض؛ إلى خيوط متينة؛ بمِغْزل تُسَرّع دوارنه بثُقَّالة خشبية من أصابعها. أمَّا أُمُّ الصبي فقد ذهبت في ذلك الصباح إلى السوق لتشتري الخضر، وفاكهة لعصير؛ هفت له معدة أَضناها أكل فصل الشتاء الثقيل والتّخم.

تاقت نفسي إلى حالة البيت هذه؛ التي تمضي هادئة؛ بطيئة؛ بسيطة، ورُمت السكينة التي عمت المكان، وحرصت عليها، ومازلت كذلك حتى آنصرف إهتمامي عن الطفل في إحدى

اللحظات، وتوقفت يدا أمي عن الغزل، ونظرت إلي، وتعلق نظري بشيء ما هناك، واعتلى وجه ابني شَدَه، وصوَّت بحنجرته يتساءل، وأسرع يحبو.

فقد رنَّ الهاتف بإلحاح.

رفعت السَّمَّاعة، وسألت من الهاتف؛ فجاء صوت الرئيس غليظا:

- صباح الخير.

أجبت بسرعة؛ منتظرا الهدف من مكالمته هاته، وفي يوم العطلة هذا.

- صباح الخير.

قال:

- الأميرة تبكي؛ تكاد أن تُدمي خدودها المتورّدتين نَدْبا؛ ساعتها من الماس اِختفت؛ لم تترك مكانا إلا وبحثت فيه؛ إلا أعماق البحر؛ أسرع فإنك في مهمة غوص؛ إنها أوامر القيادة العليا.

قلت مُطيعا:

- نعم؛ سأكون في القاعدة البحرية بعد نصف ساعة تقريبا.

سألتني أمي:

- هل ستذهب إلى العمل في هذا اليوم؛ هؤلاء القوم لا يتركون لك وقتا للراحة.

أجبتها:

- إنها الأوامر كما تعلمين.

اِرتديت وبسرعة بذلة البحرية الأزرق؛ التريكو الصوفي والسروال، وانتعلت حذائي، وأحكمت سيوره، ووضعت على رأسي القبعة

المستديرة. قبض ابني معجبا بالقبعة التي اعتلت هامتي؛ بطرف سروالي بيديه المهيضتين. رفعته من الأرض؛ قبلته؛ داعبت بسبّابتي أرنبة أنفه؛ ابتسم، ثم أودعته حِجر أمي، وسرت إلى مدخل الدار؛ أخرجت دراجتي النارية صفراء اللون؛ كانت الأولى التي آشتريتها؛ أدرت محركها؛ ثم امتطيتها، وآنطلقت بسرعة؛ في مراوغات للراجلين والراكبين وزوايا طِوار الأزقة والشوارع.

وصلت إلى رصيف الميناء؛ وجدت قارِبا مطاطيا في انتظاري؛ يهدر محركه المَوَجّه؛ يشد أحد البحارة على مِقبضه؛ تبادلنا التحية؛ أخذت مكاني، ثم انطلقنا في عُرض البحر؛ تهتز مقدمة المركب بالأمواج الزاحفة بصخب؛ يصفع قاعُه صفحةَ الماء. رأيت من بعيد مركبا شراعيا من ذلك النوع الذي يُبحر من بلدان أوروبا؛ سيأتي وصفه فيما بعد، ولما دنونا منه؛ أُرسل لي سلم قُنَبيّ؛ تسلقته؛ اِجتزت حاشية المركب؛ ووطأت قدماي سطحه. وجدت جمعا متأهبا؛ يضم نظيري الرئيس، ورجالا آخرين، وسيدة شقراء في سن الثلاثين؛ هي الأميرة.

قبض الرئيس على كتفي، ثم على عضُدي بيد مشحونة بالود؛ ناطقا باسمي، ومتحدثا إليهم بسيرتي المهنية في مجال تخصصي كغطاس بحري، وذكر لهم عدد المرات التي غُصت فيها في هذه الجهة من الشاطئ، وأنني أدرى بشعابها، ولي دُربة في ارتياد بيئتها المحفوفة بالمخاطر، ودراية بتياراتها البحرية؛ التي أخرج منها سالما؛ بالرغم أنها تُحاذي الشاطئ الصخري، وعيونهم تحدق وتجول في قَوامي؛ ترى ما إذا كنت مناسبا للقيام بمهمة الغوص في أعماق البحر؛ للبحث عن ساعة الماس؛ التي كان لضياعها أثر تبينته في

وجوههم جميعا، وخاصة صاحبتها الأميرة. كنت أُحييهم واحدا واحدا، وروائح تفوح منهم استغربها أنفي؛ إنهم قوم لهم مرقدهم ولنا مرقدنا.

من الرجال المرافقين للأميرة الأوروبية؛ محقق خاص؛ وغواص؛ لأن الساعة الضائعة مؤمن عليها. أُمِرت أن أغطس؛ لأبحث عن ساعة الماس؛ دون أن أُجادلهم، أو أُحاججهم في فرضية الغوص هذه؛ فقد أُخبرت من طرف نظيري الرئيس أنهم بحثوا عنها في كل جانب من المركب؛ إلا مياه البحر الممتدة إلى الأفق، وفي جميع الإتجاهات؛ التي يتوقف عليها المركب؛ فهي -أي الساعة- ما تزال إلى مساء يوم من الأيام الأربعة الفائتة؛ تتحسّسها أنامل الأميرة؛ تُحيط معصمها بسوارها، وتُدير ذراعها وراحة يدها بانتشاء، وتمدد أصابعها التي كُسيت هي الأخرى بخواتم من زمرد.

غمزت بعيني نظيري الرئيس؛ ففطن لشيء أريد تفهيمه إياه؛ فانتحيت به ناحية. بادر سائلا:

- كأنك تريد أن تتحدث إلي؟

قلت:

- نعم.

واستطردت:

- كأننا لم نَمْتهن البحر يوما. هل أرمي ببدني في ماء البحر دون خطة غوص محكمة؛ للبحث عن الساعة الضائعة؟ إن استُدعيت لمعرفتي بأعماق هذه الجهة من البحر، وإن غاص معي ذلك الذي استقدموه من مِلّتهم؛ أكون قد أطلعته على طبيعة أعماق بحرنا، وعلى شعابها، ومسالكها، ومهدت الطريق لفعل قد يعِنّ له في يوم

من الأيام؛ إنهم قوم لا يُستأمن جانبهم؛ أفسدتهم مدنيّتهم الجشعة؛ لا تخْنع، فلنا حُضور، ولا نكشف لهم عن شيء؛ إلا بمقدار ما يرجون العثور على ما فقدوه.

اِنشدهت صفحة وجهه، وأطرق رأسه وقتا، ثم قال:

– أجاريك فيما قلت؛ فتَصدّى.

اِنبرى الرئيس للجمع قائلا:

– لا يُعقل أن تُهدر قوة الغواص؛ في البحث عن إبرة في كومة قش، وبدون طائل؛ لا بد أن يغوص بناء على معرفة بالممهدات.

قال المحقق:

– هل ساورتكم شكوك فيما توصلت إليه؛ من نتائج في التحقيق؟

لم تنتظر الأميرة سماع ما يلي من المجادلة فقالت:

– ما يهمني أيها المحقق هو استرجاع ساعتي الثمينة، وبأسرع وقت.

قال نظيري الرئيس:

– قريني الغواص في غنى عن من يرافقه؛ فهو يحتاج إلى حرية البحث والتنقيب، كما لا بد من الإصغاء لرأيه، والتنحي عن طريقه، ليرسم الخطة التي يراها ناجعة.

قلت موجها سؤالي إلى المحقق:

– على أي أساس خلُصت إلى فرضية فقدان الساعة في أعماق البحر؟ أرى قارب نجاة مطاطي مُلازما للمركب؟

قال:

– اِلتجأ به الطباخ صباح هذا اليوم؛ إلى أسواق المدينة لجلب المؤن.

قلت:

– ألم تُهرّب على مثنه ساعة الماس؟

قال:

– ليس الطباخ شخص بهذه البلادة.

قلت:

– ألا يكون قد أبحر أحد من الشاطيء ليلا، وتسلل إلى داخل السفينة؟

قالت الأميرة:

– لا أثر يُؤكّد هذا.

قلت للمحقق:

– هل تسمح لي بجولة في أركان السفينة؟

اِستأذن المحقق الأميرة فيما عزمت عليه؛ فاستعجلتْ موافقتها.

لم أغفل، ولم يستغفلني أحد، أو يصرفني عن أي جانب من السفينة؛ فسجلت ما أثار ريبتي؛ مجسمات من الجبس؛ يستهوي بناءها قائد السفينة، وامرأة وصيفة الأميرة بدينة؛ طالما تُبْدي إعجابها بأشكالها، وسمعتُها في بعض الأوقات تستميله قائلة:

– أتمنى أن تكون جزيرة الماس ذات الرمال الذهبية، ونخيل الجوز الأخضر من نصيبي؛ فقد حلقت بخيالي بعيدا إلى هناك ما وراء البحار.

وكنت أعرف أن النساء يسترجعن ثرثرة ما عاينهن، وسمعنهن من حين لآخر، ويُبدين فتنتهن بالأشياء وإعجابهن بها، وتساءلت بيني

وبين نفسي: «من أطلق إسم (جزيرة الماس) على التُّحفة الفنية؛ التي تفننت في نحتها يد قائد السفينة؟

دققت النظر متأملا إحدى هذه المنحوتات؛ فما بدا أنها لا تستدعي موهبة النحت، أو تعكس شغفا بهذا الأخير؛ كانت الآلة تُشكّل في كتلة من الجص؛ جفت بعد صب مخلوط الماء ومدقوق الجبس في قالب؛ على نحو لا يتطلب وقتا ولا عناء. هل بهدف الاستئناس، أو إضفاء بُعد آخر على مكان مقصورة قيادة السفينة؛ لرفع سأم الإبحار الطويل والممل، أو لشيء آخر في نفس مبتكرها؟

اِحتفظت بما لا حظت إلى حين آخر، وخففت عائدا إلى الأميرة سائلا:

– منذ متى غادرتم ميناء مملكتك؟

قالت بدون استفهام:

– منذ خمسة عشر يوما.

قلت:

– في أي بحر كنتم ستلقون في مياهه بمرساتكم؟

قالت:

– في بحر (الكارايبي)؛ في خُلجان جزر (الأنتيل).

قلت مازحا:

– إنكم تَقْفُون أثر مستكشفكم الأيبيري (كريستوف كولومب)؟

قالت:

– إننا نحيي ماضي السفن الشراعية المجيد.

قلت:

- أعجب كم أنتم مُتيّمون بالبحر وبأغواره، وبالخوض في لجاج مياهه الصاخبة.

قالت:

- إنه موروث ولا بد من المحافظة عليه.

قلت:

- ولم تزل خلجان وشواطئ ما وراء البحار تُغري بالقرصنة، وبطمر الذهب والنفيس من المعادن إلى حين.

ثم استطردت قائلا:

- هل كان الجميع على معرفة ببرنامج رحلتكم البحرية؟

قالت:

- نعم؛ نحن أسرة يتآلف أفرادها، ولا نكتم عن بعضنا البعض شيئا.

سألتها مرة أخرى:

- منذ متى كنتم ستُتابعون رحلتكم؛ بعد هذا التوقف المؤقت في عُرض مياه بحرنا؟

قالت:

- يومان فقط للاستراحة؛ لأننا لسنا في عجلة من أمرنا، وللتزود ببعض الأشياء نحن في أمس الحاجة إليها في سفرنا.

قلت لقائد السفينة:

- هل اعتمدت في إبحارك بالسفينة في هذه المياه؛ على خريطة خطوط تساوي العمق؟

قال بدون تردد:

- هل يُعقل أن نترك مثل هذه السفينة؛ تنساب في بحر لا نعرف مدى عمق مياهه؟

طفقت عيناي تجولان في هيكل من خشب عالي الجودة؛ بني اللون؛ ملمع؛ بأبهاء ذات أُبّهة كلاسيكية؛ تعكس أمجاد أقوام تعاطوا للبحر؛ فأبدعوا.

قلت:

- هل هي من وضع من لا تفوته معطيات الدّقّة؟

قال:

- بكل تأكيد.

قلت بإصرار:

- أريد أن أطلع عليها.

أشار إلى مساعده بأن يَتنحّى عن المنضدة؛ التي تُبْسط عليها الخرائط البحرية؛ فرأيت إحداها. تقدمت وألقيت نظرة خاطفة إلى سُلّمها؛ الذي يُبيّن الأميال البحرية بالسنتيميترات على الورق، وإلى سنة وضعها؛ لم يمض عن استنساخها إلا ستة أشهر؛ فهي مُحَيّنة، وتضم تفاصيلا لافتة للنظر؛ فما استنتجت أن قائد السفينة على الأقل على دراية بمستوى عمق كل سنتيميتر مربع من هذه الناحية، ومن حيث ذلك فإلقاؤه بمرساة السفينة في هذه المياه ربما له هدف، وما أبلد من يكون من أفراد الطاقم من تمتد يده إلى ساعة الأميرة، ويقذف بها في البحر ليسترجعها فيما بعد؛ وقد غفلت عنها الأميرة لبعض الوقت، أو كانت في جلبة من أمرها؛ لا تستذكر شيئا يقينا. لأن جميع النّفر الآن يُشكّ في أمره. وفي علم جميعهم أنهم سيُتابعون الرحلة البحرية بعد يومين من توقفهم، وأنهم يأتمرون بما يصدر من

قائد السفينة؛ الذي ينفذ ما رغبت فيه الأميرة من استرواح في البحار والمحيطات. وفي نظرة أخيرة على الخريطة قرأت موقع السفينة؛ بالنسبة لخطي العرض والطول الجغرافيين، ولم يكن آنذاك جهاز تحديدهما الرقمي؛ الذي ابتكر فيما بعد، وصار في المتناول.

هل تُركت الساعة تهوي إلى ماء البحر مباشرة تحت السفينة؛ فيُعلم مكان اختفائها؟ فلأغوص بناء على استنتاجي؛ وإن طبعه تواضع؛ للتأكد من صحته، ولآستنتاج آخر.

طمأنت المحقق بأن قلت له:

– ما خلُصتُ إليه يصُبّ في نفس استنتاجاتك؛ فلا أستبعد كون الساعة في أعماق البحر. أُهنّئك.

بدت عليه علامات الرضى بكلامي، ولم ينطق بأي حرف، وظل ناظرا إلي ينتظر ما سأُقدم عليه.

قلت لنظيري الرئيس:

– سأغوص لأُعاين غاطس السفينة، وقاع البحر الذي يوجد مباشرة تحته.

قال نظيري الرئيس للأميرة:

– هذه غطْسة معاينة في المياه القابعة عليها سفينتك.

ما علمته فيما بعد أن المحقق اختلى بكل واحد من أفراد الطاقم قبل مجيئي، وطرح الأسئلة التي يراها استدلالية؛ دون أن ينال منهم جميعا قيْد ظُفر، ومنهم من نَمّ إليه كيف أن الأميرة مخبولة، وأنها غالبا ما شوهدت وهي تحتسي الخمور. وهي تراقص نسيم البحر في الليل بقدها الأهيف، وترفع ساقها البضة العملاقة في تدلل؛

على درابزين السفينة؛ فقد يكون سوار الساعة المعدني قد انفتح؛ على حين غرة منها، وانفلتت الساعة إلى أعماق البحر.

نزلت إلى القارب المطاطي الذي أقلّني من برّ القارة، وسمعت نظيري الرئيس يأمر البحار الممسك بعنان القارب؛ بأن يُجهّز عدة الغوص: قنينتا الأكسجين، واللباس العازل لحرارة الجسم، وأنبوب التنفس، وساعة قياس ضغط العمق، والزعنفتان والقناع الزجاجي، وخنجر قاطع للطوارىء؛ فقد تُمسك بقايا خيوط شباك غارقة؛ بأحد أطراف جذعي فتُشلّ حركتي، أو أصدّ به أخطبوط؛ يهجم علي؛ لخنقي بأذرعه ذات الممصات القوية.

في غطستي لم أجد على غاطس السفينة ما يمكن أن تُثبّت به الساعة، ولا أثرا في رمال القّعر وصخوره، أو بين النباتات البحرية؛ فغادرت الأعماق، وما إن انبثقت برأسي من الماء، ولاح لي نظيري الرئيس حتى خاطبته بإشارة الجراب الفارغ؛ أي لا شيء يستحق عناء الغوص.

عندئذ أدرك نظيري الرئيس أن وراء غوصي هذا مراوغة، وصرف الأنظار عن خُطة لم يحن بعد الوقت لتنفيذها. تحررت من قنينة الأكسجين، ومن الزعنفتين، وصعدت إلى السفينة باللباس العازل؛ إذن في أية نقطة في امتداد شعاع دائرة رسو السفينة أُلقيت الساعة؟ هذا هو السؤال الذي ربما كان يدور بأخلاد الجميع؛ حتى نظيري الرئيس والمحقق نفسيهما، وأنا الرامي لم أستنفد كل شيء؛ فما يزال في جُعْبتي سهم احتفظت به للمرحلة التالية.

قلت لنظيري الرئيس:

– آذان الجميع الآن صاغية، والعيون تَنْهبُنا نهبا؛ تقرأ ما وراء نظراتنا والتفاتاتنا وحركاتنا.

فخطا وكنت في أثره؛ قائلا:

– أرض بلادنا مسرح تجري فيه الآن حادثة حكاية واقعية؛ لأكبر عملية سرقة ساعة ماس تساوي الملايين؛ في تاريخ السطو.

ففغر نظيري الرئيس فمه مشدوها.

استطردت:

– في الخطة أمر لا بد من تنفيذه.

سألني:

– ما هو؟

قلت بثقة:

– يجب أن تُتابع السفينة رحلتها، لتخلو هذه الناحية من البحر لفرد أو لنفر؛ لا أعلم؛ موعود بما هو قابع في القاع.

قال وقد استغرب ما قلت:

– تريد أن تقول أن هناك من يتحين فرصة إقلاع السفينة.

قلت:

– نعم؛ إننا نبدو أقرب إلى عيني من يمسك بالمنظار المكبر؛ تعكس الآن عدستاه أشعة شمس الظهيرة؛ إنه باسط عضديه على حافة يتابع ما يجري الآن.

قال غاضبا:

– ماذا يجري حقيقة في الحكاية؟

قلت دون أن أستيقن بعد:

– لأفراد نفر هم الآن في البر منتدب في السفينة؛ وهو من اختلس الساعة، وأودعها مكانا مُحدّدة مسبقا إحداثياتُه.

قال نظيري الرئيس أخيرا:

– فهمت الآن؛ فمستودعات الأميرة من حليها الذهبية، وغيرها من الأحجار الثمينة، مُترصّد لها منذ أول يوم من أيام رحلتها.

قلت:

– أمر رحيل السفينة مَصيدة لهم.

لم يستوضح نظيري الرئيس شيئا آخر؛ فقد بلغته صحة استنتاجاتي؛ فالتفت جهة مجتمع الأميرة، ونظر في عيني هذه الأخيرة، وقال:

– أريدك أيتها الأميرة في مكان، لا ثالث لنا ونحن فيه.

قالت بدون تردد:

– نعم؛ كما ترى.

ومشت إلى مقصورتها، ونظيري الرئيس يحذو خطواتها؛ بعد خمس دقائق عادا؛ كنت وقتئذ قد أدليت بنفسي في القارب المطاطي، ولم يقم نظيري الرئيس بأي فعل آخر غير مغادرة ظهر السفينة، فهدر المحرك ودار القارب حول نفسه، واتجه بمقدمته إلى الرصيف، الذي تُشدّ إليه أرسنة البوارج الحربية وفرقاطات المؤسسة البحرية العامة، وفي الوقت الذي وطأت أقدامنا أرض الميناء؛ كانت السفينة قد نشرت أشرعتها البيضاء، وأبحرت في اتجاه الأفق، وما تزال كذلك حتى اختفت؛ ولعل الأميرة لم يرُق لها قرص الشمس الغارب الذي كان يتوارى بضوئه الأحمر.

أرخى نظيري الرئيس جسده على كرسي مكتبه الوثير، ومكثت أنا واقفا متأهبا. قال:

– ما أنت فاعل الآن؟

قلت:

– سأغوص في عتمة هذا المساء؛ حاملا مصباحي اليدوي تحت الماء؛ لأسترجع جزيرة الماس.

قال وقد لفتُّ نظره إلى كلامي :

– ما زلتَ تنطق دائما بما أستفهمه.

ثم أردف:

– أسرع فقد يسبقك إلى المكان ذلك الذي رصدته.

قلت:

– إن المروحة القاطرة؛ التي عززت عُدّتنا من آلات الغطس مؤخرا؛ تجعلني أستغني عن القارب المطاطي؛ فما عليك أيها الرئيس الآن إلا أن تستدعي رجال مصلحة الأمن المختصة؛ لدراسة أبعاد الساحل للانقضاض على الذي ينتظر الآن حلول الظلام؛ لا ليغوص من الشاطئ الرملي، وإنما ليأتي من البحر.

في ساعة معصمي ما يُؤهّلني لتحديد مكان ساعة الماس؛ فقد سبق وأن ضبطت المدة الزمنية التي استغرقتها عودتنا من المياه؛ التي كانت ترسو عليها السفينة. تجهزت بأدوات الغطس، وتناولت المروحة القاطرة؛ وقد شُحنت بطاريتها بالكهرباء، وسرت على الرصيف أتوارى بجوانب الفرقاطات، ثم أسلمت قدمي إلى درجات السلم الأسمنتي؛ أفضت بي إلى مياه البحر؛ التي يأتي بها المد إلى أرصفة الميناء، وتجزر عنها؛ تفوح منها روائح بنزين محركات السفن

والمراكب. ضغطت على زر التشغيل؛ فدارت المروحة؛ قاطرة إياي في أعماق البحر المحيط.

إن الذي غادر السفينة، وسبح بساعة الماس؛ بعيدا ما استطاع من مسافة قد تصل إلى مائة متر ذهابا وأخرى إيابا. كنت أعب هواء التنفس بالأنبوب المنتصب أعلى ماء البحر، ثم غصت في مياه المكان المحدد؛ دائرا من المركز، وزاحفا في آن واحد إلى ما يلي من المياه؛ فما التقطته عيناي كان هو طوافة معبأة بالهواء؛ تَسحب إلى الأعلى خيطا صنارة سميك مشدود إلى القاع؛ غطست بموازاته لأجد مجسم جزيرة الماس؛ ببركان نُحتت حِممُه بإتْقان، وشاطئ رملي طُلي بذرات مذهبة، ونخيل أخضر، ومياه ساحل صافية، انتشلته من بين نباتات أجمة بحرية، ووضعته في جرابي، ثم همزت المروحة القاطرة التي دفعتني إلى الأعلى لأطفو؛ في وقت كنت قد رأيت أضواء لثلاثة مصابيح يدوية تدنو؛ كانت تمسك بها أيدي أفراد ذلك النفر؛ الذي فكر، وبتواطؤ مع أحد عناصر طاقم السفينة؛ في طريقة ذكية لسرقة ساعة الماس.

وأنا في طريق العودة؛ أُحرّك بكل ما أوتيت من قوة ومن خبرة الزعنفتين؛ لإضافة قوة دافعة إلى المروحة القاطرة؛ كان قاربان مطاطيان يقذفان بماء البحر قذفا؛ فتُحلق مُقدّمتاهما فوق الأمواج؛ في اندفاع إلى الأمام؛ بسرعة فائقة، ليُلقي ممتطوها من رجال يرتدون حلات الغوص، القبض على الأشخاص الثلاثة؛ الذين ما يزالون ماضين في البحث عن رمية هي في حوزتي.

إذن لم أخطء، ولم يكن ما تصورته مجرد تهيؤات، قد يكون استبد بي بعض الخوف من أن ما خططت له كان بُهتانا؛ فمجرد ما

برحت مياه البحر؛ حتى شعرت بفرحة نجاح في المهمة التي أُنيطت بي، وأسرعت إلى نظيري الرئيس الذي وجدته في جمع؛ ضم بعض المحققين وحراس الأمن؛ فأشار إليهم بيده إلى الاجتماع في غرفة مكتبه، وعلى مرأى منهم جميعا، وعلى المنضدة وضعت منحوتة جزيرة الماس، ولم تزل عينا نظيري الرئيس تتساءلان عن سر ما حملت. حُمِلت إلي مطرقة، نزلت بها على قطعة الجبس المشكلة؛ فتجزأت إلى قطع؛ كاشفة عن ساعة؛ تتلألأ حبات ماسها بنور المصباح؛ فكان صمت وتعجُّب شملا الحاضرين خلال لحظات.

نطق نظيري الرئيس:

– إذن فسارق الساعة هو من كان ينحت أشكالا في الجبس؛ إنه قائد السفينة.

قلت بصوت الظافر:

– نعم.

تقدم أحد رجال الأمن شاهرا جهاز اتصاله، ونطق في ناقل الصوت:

– لتُحلّق حوامتان في عملية تعقب سفينة الأميرة، وتحديد موقعها.

أكد الصوت الذي يوجد في الطرف الآخر تلقيه الرسالة الصوتية؛ فسُمع بعد دقيقتين صوت مراوح حوامتين تجلد رياح الجو، وهديرها ينأى في ذلك البعد الذي غيّب السفينة. بعد خمسة عشرة دقيقة نقل جهاز الاتصال التقرير التالي:

«تم العثور على السفينة وهي راسية على بعد ثلاثة أميال بحرية إلى الجنوب الغربي من القاعدة البحرية. أُلقي بغطاسين من متن

الحوامتين؛ مسلحين لآحتمال هجوم؛ صعدا على ظهر السفينة ليجدا خمسة أفراد محتجزين في إحدى حجرات باطن السفينة؛ فيتم تحريرهم؛ وليُعلم من الأميرة أن قائد السفينة هو من احتجزهم، وركب قارب النجاة وتوغل به في البحر؛ ليسمعوا بعد ذلك هدير طائرة، وهذه الأخيرة تنزل بدعامتين انسيابيتين على مياه البحر. لا يُستبعد أنها تلقفت قائد السفينة، وحلقت به إلى وجهة مجهولة».

بعد شروق الشمس؛ سطع ضوء هذه الأخيرة، وأنار صباحا؛ زاد من سعادة الأميرة؛ فقد عُثر على ساعتها ذات حبات الماس؛ يقال أنها صُقلت من عينة؛ كانت هي أول ما دل المنقبين على المعادن النفيسة؛ في بداية القرن التاسع عشر على منجم بإفريقيا؛ ما يزال مِعْطاء؛ كأنه لن ينضب في يوم من الأيام؛ فهي إلى جانب قيمتها المالية؛ تحفة فنية وتاريخية؛ فهي تركة يتوارثها الأمراء والأميرات، وما إن أُبرق لها خبر العثور عليه؛! حتى أصدرت أمرا لمساعد القبطان بأن يقود السفينة سالكا خط الإبحار الذي يتجه إلى القاعدة البحرية؛ التي لم يتوان أحد رجالها المختص في الغوص؛ فأثنت وشكرت، واستعظمت ما قمت به وأكبرتني؛ ثم أمرت مساعد القبطان بالإبحار؛ ليس مع تيارات بحار الجنوب؛ وإنما العودة إلى إمارتها؛ ليكشف تحقيق عن فساد بعض العاملين في بلاطها.

فما هي بداية هذه الحكاية؟

كما حكت الأمير بعدئذ بضمير الغائب؛ بأنه لم يكن في خلف صاحب إحدى الإمارات الأوروبية الموروثة عن زمن الإمبراطوريات والملكيات المطلقة؛ غير ابنة؛ كانت هي وريثة عرش والدها بعد وفاته. كانت سنها آنذاك خمسة عشر عاما؛ فلم تكن تدرك جميع

ما كان يجري من وقائع وأحداث في مملكتها، وما كان يُخطط له من فعل، ولم تكن تعي خبايا الأمور، وما الهدف مما ينقل إليها نميمة بأحد، ودسائس ومكائد وحيل أفراد حاشيتها ومعاونيها، ولم يكن لها علم مما ينهب من أرصدتها المالية؛ كانت غِرّا؛ تقضي أوقاتها في اللهو، والاستسلام لكلمات الإعجاب والمجاملة؛ التي يُبديها ضيوفها من أبناء الملوك والأثرياء، فكان آخر ما خُطّط له هو سرقة ساعتها الماسية؛ فقد واطأ قبطان سفينتها الشراعية أفراد عصابة مُتخصصة في سرقة الحلي والمجوهرات الثمينة؛ فأغراها في إحدى الأمسيات؛ في خضم إحدى حفلات الإمارة الصاخبة بالإبحار في البحار والمحيطات الدافئة؛ إلى الجنوب من خط الاستواء؛ حيث ما تزال الأراضي هنالك تزخر بعجائب الطبيعة العذراء، وببقايا قبائل وشعوب ما تزال تحافظ على عاداتها القديمة وتُحييها؛ والتي هي في طور الانقراض؛ وقد استسلمت لهذا؛ والذي كان حلم يقظة طالما رجت تحقيقه وهي في سن مبكر؛ فكان أن سامر قبطان السفينة أميرته إلى حد الهذيان، والسفينة تجري بهما في عُرض البحر؛ فغافلها ثم عمد إلى صندوق مجوهراتها ففتحه وامتدت يده إلى ساعة الماس؛ طمرها في إحدى منحوتاته الجبسية؛ أسماها جزيرة الماس، وأغرقها محددا الإحداثيات بدقة، وطبقا للخطة التي رسمها بالاتفاق مع عناصر العصابة الثلاثة الذين جاءوا برا؛ وانطلقوا من الشاطئ إلى مكان إغراق المنحوتة؛ ليقوموا بتحقيق المرحلة الأخيرة منها؛ وهي انتشال المنحوتة من قعر البحر؛ لكن الأحداث جرت عكس ما خطَّطوا له.

الحوّامة الغارقة

كان من أشق تكوين تطبيقي؛ في مجال الغوص الذي تخصصت فيه؛ هو الذي بُعِت بي لتلقيه إلى فرنسا في سنة 1965م؛ فيكون قد مضى على توظيفي بمؤسسة البحرية العسكرية سنتان؛ فأي تدريب هذا الذي خُضناه في آخر كل حصة الدرس النظري؟ إنه التمرن على انتشال سفينة أو غواصة أو طائرة، ولحادث مُفاجئ ابتلعتها مياه البحر، وهوت إلى القاع؛ مستقرة هناك ببدنها، أو هيكلها الحديدي، وبراكبها ليموت في عمق قد يصل إلى مئات الأمتار؛ فما تمرنت عليه؛ ولمدة شهر؛ يتخللها يوما عطلة نهاية الأسبوع؛ من إشراقة الشمس إلى حين غروبها، وفي بعض الأيام تُنظم غطسات بالليل؛ بمصابيح يدوية (تحتمائية)؛ هو رفع الأجسام الغارقة بطريقتين؛ تتم إحداها بتعويم السفينة الغارقة؛ بشد حبال تمرر من أسفلها إلى سفينتين تجرانها، وأخرى يُرفع بها الحطام برافعات على سطح البحر، وفي كل عملية مد البحر؛ تُجر السفينة إلى أن يجزر البحر في أدنى مستوياته، أو البحث عن الصندوق الأسود؛ انفجرت طائرته في الجو، وتطايرت شظاياها على مساحة كبيرة؛ هذا كل ما صارت لي معرفة به، وتدربت عليه.

إلا أن حادثة الغرق التي وقعت حقيقة في (المغرب) مختلفة، ومثلت نموذجا فريدا، وتجربة جديدة؛ وكانت فعلا محكا واختبارا؛ وُثقت تقاريرها وصورها الفوتوغرافية؛ ففي بداية ثمانينيات القرن العشرين؛ وأثناء عملية التدريب على الطيران؛ هوت حوامة من نوع

(شينوك[5]؛ Chinook)؛ تابعة للطيران العسكري؛ من الجو إلى مياه نهر أبي رقراق الضحلة؛ غائصة بثقلها الهائل في الوحل.

ففي ذلك اليوم كان عقربا ساعة الحائط يُشيران إلى التاسعة صباحا؛ عندما رن الهاتف الموضوع في الركن الأقصى من يمين مكتبي؛ فرفعت سماعته وأطبقتها بأذني؛ فتدفقت نبرات صوت نظيري الرئيس المألوفة؛ وبفُتور مني؛ مُعتبرا الأمر الذي سيُصدره لا يخرج عن العمل اليومي؛ كتحرير تقرير بأسماء حاجيات؛ لا غنى لمدرسة الغوص عنها؛ لتحسين أداء بحارة حديثي التعيين، واكتسابهم مهارة في السباحة والغوص، وتحمّل ضغط الأعماق، أو شئ مثل هذا. قال:

– تلقيت برقية في هذه اللحظات، تأمرنا على أن نتوجه بعددنا وعدتنا؛ على متن إحدى الطائرات الصغيرة المتوقفة على رصيف مطار (أنفا)؛ بسرعة إلى منطقة العدوتين (الرباط) و(سلا)؛ للقيام بعملية سحب حوامة هوت في مياه نهر أبي رقراق؛ على بعد خمس كيلومترات من المصب.

غادرت الكرسي سائلا إياه، وقد همتني الحادثة:

– هل أُنقذ قائدها ومن معه؟

قال:

– لا أظن؛ لأن مياه النهر في أوج مدها، ولن يستطيع أحد أن يقوم بعملية الإنقاذ، وكما قيل لقد حفرت المروحتان في طمي

---

[5] طائرة نقل عسكرية من صنع شركة بوينغ الأمريكية؛ كان أول طيران لها في سنة 1962م.

العمق، مما أدى هذا إلى طمر طرف الحوامة الأيمن بكامله؛ لقد قضى الربابنة.

قلت باهتمام بالغ:

– إذن فهي أول عملية محاولة انتشال من نوعها سنخوضها.

قال:

– بشرط دراسة طبغرافية الموقع، واستعمال أدوات وآلات تناسب العملية، وإلا سنفشل.

قلت بثقة الخبير:

– لنُعاين أولا مكان الواقعة.

قال مُتعجلا:

– إني في انتظارك.

كان مسلك رحلتنا ممهدا ومُيسرا؛ فأينما توجهنا وجدنا ما نحتاج إليه؛ فالسيارة التي نقلتنا من أمام المدخل الرئيس للقاعدة البحرية؛ إلى مطار (أنفا)؛ كان سائقها في كامل أهبته، وفي الوقت الذي تلقف رصيف إقلاع الطائرات أقدامنا؛ كانت عينا قائد الطائرة تنتظران ظهورنا؛ فلم ينتظر وقد ظهرنا له؛ فهمز ما جعل المحرك يزأر، وتنخرط المروحتان في حركة دوران دافعة، وبمجرد ما أخذنا مكانينا خلف قفا قائد الطائرة؛ نشر أمامي نظيري الرئيس خريطة طبغرافية المنطقة التي يخترقها نهر أبي رقراق؛ الذي غرقت في مياهه الحوامة؛ في محاولة للتعرف على طبيعة المكان، وكنت أسمع من حين لآخر الحوار الدائر بين قائد الطائرة، وبرج المراقبة بقاعدة (سلا) الجوية؛ التي ستهبط على أحد أرصفتها الطائرة، كما كان يتلقى تقارير صوتية بحالة الطقس؛ باتجاه الرياح، والضغط، والحرارة،

والرطوبة، وعلى أي علو تظهر إشارة الطائرة على شاشة برج المراقبة.

سألني نظيري الرئيس:

– هل تصورت الكيفية التي يمكن أن ننتزع بها الحوامة؟

قلت، وإن كانت قد لاحت لي بعض الملامح، وداهمتني فكرة أو فكرتان:

– ليس بعد؛ لا ننسى أننا في شهر مارس؛ ما زالت اضطرابات المحيط الجوية الرطبة تأتي؛ هل في الجو انفراج؛ يسمح لنا بتنفيذ الخطة التي ستُرسم؟

فتح نظيري الرئيس محفظته الجلدية الكبيرة، وأخرج خريطة جوية تُنبئ بحالات الجو خلال الأيام القادمة؛ تلقاها من محطة الأرصاد الجوية. تناولتها وشرعت في قراءة رموزها المعقدة؛ ما وقفت عليه هو مجرد أمطار خفيفة لا تُشكل حائلا؛ فطمأنت نظيري الرئيس قائلا:

– الطقس ملائم في جملته؛ ليس فيه ما يُعيق؛ إلا أن تربة الأرض المحاذية للنهر، والنافذة لماء المطر ما تزال رخوة؛ فكيف ستتحمل الثقل المعاكس للمركبات التي ستجر الحوامة إلى البر؟

اِنتبه نظيري الرئيس في اللحظة الأخيرة من شروده قائلا:

– سنطلب كل ما تحتاج إليه العملية من عُدّة.

قلت:

– يبقى السؤال: ما هي الطرقية التي نستطيع أن نرفع بها الحوامة على سطح الماء؟ في البحر الأمر بسيط، أما في طمي النهر اللزج فهو في غاية الصعوبة.

نظر نظيري الرئيس في عيني؛ يتأمل بخوف ملاحظتي التي تنم عن خبرة. قال:

– القادة في موقف حرِجٍ.

قلت:

– نظرتي مُغايرة؛ وإن أودت الحادثة بحياة رجل أو عدد من الرجال لا أعلم؛ فهي واقعة أصبحت من التاريخ، وحري أن تُدرس تفاصيلها للأجيال القادمة للاستعبار؛ فالبحرية الأمريكية مثلا تسيطر على بحار ومحيطات العالم؛ منذ الحرب العالمية الثانية؛ بعد انتصارها على الإمبراطورية البحرية اليابانية الناشئة في المحيط الهادئ؛ صائلة وجائلة؛ ليس بهذا النجاح الذي تتمظهر به؛ فوراء هذا خسارة في الأرواح والتجهيزات تُكلف أموالا طائلة؛ فكم من قائد طائرة قضى غرقا بطائرته، وهو يحاول الهبوط على رصيف إحدى حاملات الطائرات الفولاذي؛ فذلك يجعلنا نشد بعضنا البعض من أجل تحقيق أمن بلادنا واستقرارها.

قال بحماس:

– أوافقك؛ لا بد أن يقوم كل عنصر من الفريق بعمل يُتقنه، ويراه نافعا ومثمرا؛ وإلا سيكون تهاونه وعدم خبرته؛ لبنة خائرة التحمل؛ في بنيان يتهدده الانهيار.

كنت أنظر إلى مشاهد وعلامات الأرض؛ التي اختلفت أشكالها وألوانها، ثم أرى قائد الطائرة يتجه بالطائرة يمينا، ثم يميلها إلى اليسار؛ سالكة محيط نصف دائرة؛ فأرمي ببصري لأشاهد كيس الهواء المنصوب في هضبة القاعدة الجوية يُرفرف مع اتجاه الريح؛ جنوب–جنوب–غرب؛ فعرفت أن الربان سيهبط بالطائرة عكس

هبوب الريح؛ لإضافة قوة عاكسة تُبطيء من تحليق الطائرة وهبوطها على الرصيف؛ فخففت من سرعتها، ثم دنا بها القائد من مدخل البناية؛ لنجد من يترقب وصولنا؛ من المشرفين والأعوان وحراس القاعدة؛ فأشارت يد المنسق إلى الجهة الأخرى حيث المخرج إلى طريق المدينة، ويُحَفِّزنا وقع أحذية من يسير في أثرنا؛ على ركوب سيارة عسكرية رباعية الدفع؛ تنطلق سالكة الطريق المؤدي إلى الضفة اليمنى من النهر. أمطرتنا الوجوه بالنظرات، وتستدل من الهيئة من منا سيُبارز وسيُنازل، وإن وُفّق سيستطيع. لم أر ما يمكن أن يظهر من الحوامة؛ كانت مغمورة بالماء؛ ولأضبط مكان وجودها سألت عنه؛ فأشير إليّ أنها هناك؛ أما ما يمكن أن أسأل عنه في أي اتجاه ذيلها ومقدمتها، أهي في وضع عرض الواد؛ أم في طوله؛ كل هذا سأتثبت منه في أول غطس لي.

أسررت لنظيري الرئيس قائلا:

– ما تعرفه عني هو ميلي إلى معرفة البدايات؛ فكل حدث له مكانه وزمانه وأسبابه، وهو فعل فلا بد له من فاعل.

في تلك الأثناء كان يُتاخمنا قائد القاعدة الجوية العام؛ فأملى عليه نظيري الرئيس ملتمسي، فقال القائد العام:

– في الساعة الثامنة والنصف؛ من صباح يوم أمس دُفع إلي قصد التوقيع بالتقرير اليومي؛ بتدريب متقدم لأحد الربابنة؛ ما يزال في طور التمرين؛ فاسمه واسم المدرب. الأهم هو نوع التدريب؛ بأن يراوغ الربان أفاريز الوادي، ويحلق بسرعة فائقة في عمقه، وبين سفوحه، وعلى علو قريب من سطح الأرض؛ سالكا في آن اتجاه خط مياه النهر؛ ولمسافة قد تصل إلى ستة كيلومترات. كنت أتابع

اندفاع الحوامة بالمنظار المكبر بهدف التقييم؛ في وقت ترنحت فيه الطائرة، وضربت بإحدى شفرات المروحة الخلفية مقلع الرخام الذي تراه هناك؛ فانكسرت؛ وفي محاولة كما بدا لي للعودة إلى وسط الوادي لمغادرته هوت؛ وما تزال المروحتان تدوران حافرة في طمي النهر. هل وقع هذا نتيجة عطب؟ أو لم يستطع الربان المتدرب التحكم في زمام مقود التوجيه؟ سنجد الإجابة بعد فحص الحطام.

ارتديت حُلّة الغطس، ولم يئن ظهري بثقل قنينة الأكسجين؛ فبطن الجواد اندمل بالمهماز، وتورّم وماتت عضلته، ثم تقدمت، وركبت القارب المطاطي؛ اتجه بي إلى مكان الغرق وغُصت. أول عائق هو أن ماء النهر ليس شفافا بالقدر الذي هو عليه ماء البحر؛ كانت الرؤية ضعيفة؛ فما فكرت فيه هو احتمال اصطدامي بأجزاء الطائرة البارزة؛ قد يُهشّم أحدُها زجاج القناع، أو يخرق قنينة الأكسجين، أو يُمزّق أنبوب التنفس؛ إذن فالغوص في هذه البيئة محفوف بالمخاطر؛ هل أعود للبحث عن وسيلة أخرى؟ قررت أخيرا أن أحذر وأحتاط، وأزحف بترو وببطء؛ فما عاينته هو أن الجانب الأيمن للحوامة مطمور بكامله في الغَرين؛ البقايا الدقيقة مما ينحته النهر في عاليته، وما يرسبه في الخفيض من سافلته؛ من الأراضي القريبة من المصب؛ وهي مادة سوداء اللون لزجة؛ تبتلع قدمي. سرت متحسسا صفائح الحوامة، وناظرا إلى داخلها؛ فرأيت جسدي الربانين، وقد ماتا اختناقا، وبعد أن حددت وضع غرقها غادرت مياه النهر.

كان نظيري الرئيس قد بسط خريطة من مكان الوادي؛ فأخذت قلما ورسمت شكل الحوامة؛ بالوضع الذي هي عليه. سألني نظيري الرئيس:

هل تستطيع الرافعات سحبها؟

قلت:

– هذا ربما ما كان سيقوم به من قبل المشرفون؟

قال:

– نعم؟

قلت:

– أفضل ما فعلوا عندما استدعونا؛ ليست العملية بهذه السهولة.

قال سائلا:

– إذن فما هي الكيفية التي تراها مناسبة وناجعة؟

قلت:

– الآلات والأجهزة أولا؛ مضخة ماء عالية الضغط، وخراطيم، وحبال حديدية سميكة، ومضخة هواء، وأكياس متينة مصنوعة لهذا الغرض.

نودي في أجهزة الإتصال؛ فلبى القائمون.

قلت:

– لأخط على اللّوح تفاصيل العملية: يُضخ الماء من البر بقوة في الطمي الموجود مباشرة تحت الحوامة؛ لحفر قنوات تمرير الحبال الحديدية؛ تُشد إلى أطرافها الأكياس التي سنغوص بها فارغة، ثم يضخ فيها الهواء؛ فيرفعها الماء إلى السطح ساحبة الحوامة، وتُفرغ هذه من الماء المتسرب إلى الداخل، في الوقت الذي تستعد الرافعة

بجرها وهي طافية إلى البر؛ هذا إذا لم تترنح العوامة، وتعود للاستقرار في أعماق النهر. العملية تحتاج إلى التروي، والكياسة.

نظر إلي نظيري الرئيس، وما تزال أمارات التساؤل حول مدى نجاح خطتي التقنية؛ تظهر على وجهه.

قلت:

– كل محيط له مكوناته، أو بيئة لها عناصرها، والتطويع يتطلب من يسوس بحكمة إذا أوتيها؛ لنتفاعل مع ما هو حادث. لا أجزم أن ما صممته سنحقق به الهدف؛ لذلك كما قلت سأزحف على الحوامة بتأن، ومهادنة ما يُعيق، وملاطفة ما يشتد.

قال بحزم:

– سأذود عنك، وأصد الفضوليين وقناصة الفرص، ومن يستثمر لصالحه.

قلت:

– من الحاضرين من تنطبق عليه هذه الأوصاف.

تسلحت، واستعددت للمنازلة في ساحة الوغى. ما ألين ماء النهر وهو يضُمّني! غُصت وبيدي خرطوم الماء؛ أدخلت أنبوبه تحت الحوامة؛ صعدت، وطلبت ضخ الماء؛ بإشارة من أصابع يدي؛ فانطلق الماء ينفث تراب أعماق النهر، وحصاه في الاتجاه الآخر، ثم مررت الحبل الحديدي، وبنفس العمل قمت في الجانب الآخر المعين، ثم ركّبت في كل طرف من الحبلين الحديدين أربعة أكياس من اللّدينة فارغة، وأوصلت أنابيب ضخ الهواء بفتحاتها، وانسحبت لأترك ما ستُنتجه قارورات الهواء المضغوط وآلة الضخ، وما إذا كانت الأكياس التي ستمتلئ بالهواء ستطفو بالحوامة.

ناديت في الجمع:

- ليأخذ الجميع حذره.

ارتفع صوتي بالعد التنازلي:

- ثلاثة؛ اثنان؛ واحد؛ صفر.

فتناهى إلى مسامع الحاضرين صوت نفث الهواء المضغوط، وما يزال الهواء يدفع نفسه، ولا ندري ماذا يجري في الأعماق، وأفراد الرهط يحبسون أنفاسهم؛ لا يُبدون أية حركة، ولا التفاتات، ولا نأمة؛ حتى ظهرت إحدى شفرات الحوامة، وعام جزء من هذه الأخيرة، ثم ظهر نصف هيكلها؛ فنظر الجميع إلى جثتي الربانين بأسى، وتألم شديدين، وقصدني البعض منهم يُهنئني على نجاحي في مهمتي.

أوغرت الرافعة ركائزها الأربعة في الأرض؛ رابضة؛ لا يزعزعها شيء مهما كانت قوته، وسحبت الحوامة إلى ضفة النهر؛ ليهرع طبيب وممرضان بكيسين يلفان بهما الجثتين، ويحملانهما في سيارة إلى القاعدة الجوية؛ ليقام مأتم رسمي؛ بطقس تقدير من قضى تضحية، وهو في خدمة وطنه.

لم يزدني توفيقي في ذلك إلا تشجيعا، ونذرت نفسي لصالح بلادي، وبالشيء الكثير.

قُنبلة الرّايخ[6] في بحرنا

ليست الفترة التي قضيتها حتى ذلك التاريخ؛ في مجال الغوص تدريبا وإنجازا بطويلة؛ فتكون كافية لاكتسابي خبرة، وحتى أفطن لما هو خطير في المهمات التي أُكلف بالقيام بها. شأن آخر انتبهت إليه، فما أخطر أن لا تكون واعيا بحدود حماك؛ بأبعاد مجالك الجغرافي؛ الذي هو في ملكك؛ لا حق لأحد أن يقتحمه عليك؛ وبإجراءات قانونية تصاغ، واحتياطات أمنية.

هل في وعينا أن هذا البحر هو امتداد لقارتنا؟

ففي إهماله شر مُستطير؛ فلا بد أن نخوض فيه ركوبا وغوصا، ونخترف ما توجبه مياهه علينا من تحصينه وحمايته؛ تسجيلي لهذا جاء بعد أن تلقيت في مساء اليوم الرابع من فبراير؛ سنة 1978م؛ على الساعة الخامسة بعد الزوال؛ مذكرة مختومة بكلمة (سري)؛ وهي في يدي؛ إذ تقاطرت علي تخمينات كثيرة بمضمونها، ثم أنتهي كعادتي دائما إلى أنها لا تُستثنى؛ مما يصدر من أوامر من القيادة العليا البحرية. لم أتعجل؛ فرفعت كرسيا وانتحيت به ركن الحجرة؛ كانت ما تزال تسطع عليه الشمس؛ نشرتها وشرعت أقرأ:

«إلى السيد رئيس الغطاسين؛ المدرب بمدرسة الغوص؛ التابعة لمؤسسة البحرية العليا؛ نحيطكم علما، وفي إطار عملية اختبار الأجهزة الراصدة عن بعد الجديدة؛ التي يتم تدعيم المؤسسة بها؛ أنه

[6] الرايخ الثالث أو الرايش؛ اسم أطلق على ألمانيا إبان الحكم النازي؛ بزعامة أدولف هتلر (؛ هي كلمة ألمانية تعني الإمبراطورية.(القاموس السياسي؛ أحمد عطية الله؛ دار النهضة العربية؛ القاهرة؛ 1968م).

تقرر إشراككم في الفريق المعين لهذا الغرض؛ والذي سيُبحر على الساعة التاسعة؛ من ليل هذا اليوم؛ على متن إحدى الفرقاطات».

ما أرحب سطوح مياه كوكبنا الأزرق، وما أعمقها، وما أعظم ما تضرس من صخورها العميقة، وما أغرب ما توجبه لسبر أغوارها، وما طوته في غياهبها من أشياء؛ من أجهزة وآلات وعمليات غوص خطرة وقاتلة أحيانا! إن أمهر غطاسي العالم؛ مات غرقا في أحد الكهوف البحرية؛ إلى الجنوب الغربي من ساحل فرنسا عام 1960م.[7]

تساءلت بيني وبين نفسي: «إذا كان الهدف من الخروج إلى البحر؛ هو اختبار جهاز جديد؛ من أجهزة التقاط، أو نقل ما يجري في مياه المحيط، أو رسم أعماق البحر؛ فما هو عملي أنا، وما مساهمتي في إنجاح العملية؟»؛ أجبت: «قد أُستشار في بعض الأمور التقنية، أو يُستأنس بوجودي؛ فأُعزز، وآزر، وأُدعّم، وفي البحر ما يفاجيء، وما لا يخطر على البال».

اِعتليت أطرافي السُّفلى، وخطوت بتُؤدة إلى خزانة البذلات المفصلة خصيصا لركوب البحر؛ خلعتها علي؛ وهي مفخرة، ومشيت قاصدا مكتب نظيري الرئيس؛ طرقت الباب وانتظرت؛ لم يطُل وقوفي فقد سمعت:

---

[7] هو الغواص الأمريكي (كونراد ليمبوغ؛ CONRAD Limbaugh)؛ مات في أحد كهوف الأعماق أثناء قيامه بمحاولة غوص استكشافية في البحر الأبيض المتوسط؛ بالقرب من كاسيس Cassis؛ إلى الجنوب من مرسيليا ب 32 كلم. وُجدت جثته عند 106 أمتار من مدخل الغور البحري. ولد في 28 يونيو 1928م وتوفي في 20 مارس 1960م.

- أُدْخل.

دفعت دفة الباب، وخطوت إلى الداخل راميا ببصري؛ لم أجد نظيري الرئيس جالسا كعادته على الكرسي؛ ومكتبه المركب بقطع سميكة من الخشب يمتد أمامه، وتناهى إلى مسمعي في الوقت نفسه؛ صوت تصفح الورق المصقول؛ لألتفت إلى مصدره؛ كانت بيد نظيري الرئيس مجلة كبيرة الحجم؛ في أبهى طبعة؛ تأخذ صورها الفوتوغرافية الملونة؛ الحيز الكبير من كل صفحة. كان قد أودع جثته الضخمة أحد الكراسي المبطّنة والوثيرة. كان في جحاظة عينيه الناظرتين ما يدل على أن في محتوى المجلة همه المهني؛ ولابد من الاستزادة والاسترشاد. قال دون أن يرفع عينيه عن المجلة؛ التي تعرض ألوانا وأشكالا؛ من أشياء كثيرة:

- هذه مجلة تصدر عن بحرية فرنسا الوطنية؛ تقدم معلومات عن أحدث أجهزة البحر التكنولوجية؛ يتحدث أحد مقالاتها عن الجهاز الذي سنختبره في هذه الليلة؛ مُقدما ورقة تقينة عنه؛ طالِعْه؛ ففي القراءة عن الأشياءِ ما يُنظم فهمك لها.

نظرت إليه إعجابا برأيه السديد، وبما يحمل من دلائل خبرة أوتي بها، وإني منذ أول يوم انضممت فيه إلى المؤسسة البحرية، وأنا أتابع بانتباه، وأحاول استيعاب ما يُلقى على مسامعي؛ من قواعد، ونظريات، ودروس، ولا يفوتني من ذلك شيء إطلاقا. جذبت عيناي؛ وإلى الصفحة كتابةٌ ورسومات سابرة للجهاز، وبالرغم من أن تتبعِها مُضني؛ إلا أن شغفي بالمطالعة؛ دفعني إلى أن آتي على كامل ما حُرِّر، ولم أرفع وجهي إلا بعد أن تيقنت بأن نقطة النهاية قد أدت دورها؛ ولم تُوهِمْني بشيء آخر ؛ ولم أكن مخدوعًا.

سألني:

– هل تُعقّب على ما اطلعت عليه؟

قلت:

– جعلني المقال أنظر أبعد مما كنت أتصور؛ سيكشف عن أشياء كثيرة ابتلعها البحر، ومن يدري فقد يحدد مواقع (أمفورات)[8]، وسفن المساحلة التجارية القديمة.

فاجأه ما نَمّ عن اهتمامي بكل ما له علاقة بالبحر، ونظر بعينين مُنبهرتين؛ قال:

– أركيولوجيا أعماق البحر مجال عمل يُغْري؛ لكنه يحتاج إلى مؤسسة مُتخصصة؛ تُمول عمليات التّنقيب.

قلت:

– إذا ما رصد جهازنا الجديد شيئا من هذا؟

أجاب فوراً:

– نُوثِّقه؛ أما عملية استرجاعه فإنها تحتاج إلى أركيولوجيين متخصصين في دراسة مكان الغرق؛ لصياغة القصة الكاملة.

زادني كلامه حماسا وزهوا؛ لأن لنا نحن غواصو المؤسسة احترافية وتؤهل. بدا له أثر هذا على وجهي؛ ابتسم وقام مُتأهبا؛ قال:

– هيّا بنا؛ فإن سفينة رحلة اختبار الجهاز في انتظارنا.

وسرنا على رصيف الميناء كما اعتدنا؛ بخطوات ثابتة، وغير مترددة، وبصدى وقعات قوية. كُنّا نمر؛ وعلى يميننا فرقاطات رمادية اللّون؛ تُلْجمها حبال متينة؛ إلى أوتاد حديدية سميكة ذات رؤوس

[8] الأمفورات؛ Les amphores: جرار استعملت قديما لنقل السوائل؛ كزيت الزيتون وغيره.

ماسكة. في حقيقة الأمر؛ فإن في التجربة الجديدة رهبة، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي: «هل سينجح الاختبار، فننال رضى المسؤولين، ونكون قد أتينا من الواجبات؛ ما يجعلنا نقول أننا مُؤهلين لتنفيذها؟

قبل أن أُسلّم قدمي إلى الرصيف المؤدّي إلى مدخل السفينة؛ التفتُّ إلى الأفق؛ كان آخر شعاع غروب الشمس يكاد يختفي؛ فقلت:

– مراحل رحلتنا ستمر في جنح الظلام.

سألت نفسي: «لماذا؟»؛ جاء مني الجواب سريعا: «السّرّية؛ وهي أمر للقيادة العليا؛ هل يُسْتأمن من يسافر في المراكب والسفن التي تجوب البحر نهاراً؟»».

وجدتُني مرة أُخرى في خضم هدير محركات دفع السفينة، ومحركات توليد الكهرباء، والتدفئة، وشيء آخر أسعدني، وذكرني بدفء البيت والأُسرة؛ أطعمة تُطهى ذات روائح لذيذة تتسرب من مطبخ السفينة؛ أنستني ما ينتظرني من سأم الإبحار، والإلتزام بالمهمة، وبالمجال؛ المعَدّان لك لإنجاز مراحل الرحلة وإنجاحها.

في الوقت الذي زأر فيه مُحرِّك السفينة، وتخيلت المراوح وهي تدور تدفع عنها مياه البحر الثقيلة، وتدفع هيكل المركب الحديدي بعيدا عن الرصيف؛ كنت قد دخلت إلى مقصورتي، وتمددت على الأريكة مستعدا للإمساك بكتاب؛ ينقلني من عالم البحر؛ إلى عوالم أخرى مُتخيّلة. نظرت إلى الأفق؛ كان ما يزال يرسم خطَّه نورُ شمسِ الغُروب الأحمر. كنت أسمع صوت اختراق مقدمة السفينة الحاد للأمواج، والكلام المتبادل بين قائد السفينة ومساعده من جهة؛

وبينهما وبين القاعدة البحرية من جهة أخرى عبر جهاز الاتصال، ثم ساد أرجاء السفينة هدوء وسكون. كان فُلْكُنا قد توغل في البحر.

على الشاطئ الذي غادرناه كانت تتلألأ أنوار مدينة الدارالبيضاء، وعلى أضواء السفينة رأيت نوارِسا؛ وتساءلت: «هل هي في رحلة إلى شطآن أخرى، أو آيبِة منها؟»؛ سمعت حفيف أجنحتها، وأصوات نعيقها؛ فسرحت خيالاتي بعيدا، أغمضت عيني، وغفوت لأصحو على نقرات متوالية باليد على الباب؛ إنه المعتاد من الأوامر الصادرة عن قائد فريق الاختبار؛ فقلت:

– لقد حل وقت العمل المبرمج.

نُودي على الجميع للاجتماع في القاعة المعينة لهذا. بعد عرض مراحل العملية على مرآى ومسمع الجميع؛ تخطيطا على لوحة، وشرحا لما قد يُستبهم؛ قام كل واحد منا إلى المهمة التي لم يُكلّف بها؛ إلا لأنّه سيؤديها بدون شك بإتقان، وسيجِدُّ لإنجاحها.

تحررت الأسلاك المعدنية المفتولة من بكرة الرافعة، واستسلمت لثقل الجهاز؛ هذا الأخير غاص في مياه البحر، ونزل إلى الأعماق ناقلا بتوصيلاته، وبمكثّفاته ووشِيعاته المغناطيسية؛ ما يُصادفه من أجسام، وما يصدر من أصوات؛ فما تَعِد به الشركة المصنّعة أنه يلتقط أبعاد المجسمات؛ وإن كانت في أدنى منخفضات البحار والمحيطات، وذبذبات الأصوات، وإن كانت بعيدة بعِدّة أميال بحرية، وقد شاهد جمعُنا الذي تحلق أفراده على شاشة الاستقبال؛ نتوءات تضاريس الأعماق، وسمع عدة أصوات بإيقاعات مختلفة؛

فهي متقطعة، أو مسترسلة؛ كالهدير والأزيز والهسيس والرنين؛ وهي قابلة للتحليل، وقراءة رموزها الصوتية.

لا نعرف من الأنهار والبحار والمحيطات؛ غير أنها مسطحات مائية تطفو عليها هياكل مراكب الصيد الخشبية، وسفن شحن البضائع وسوائل خام البترول الحديدية؛ فكانت فرحتنا كبيرة بالجهاز، وحماسنا له متدفقا؛ لأنه سيُتيح لنا استكشاف ما استقر في القيعان من أجسام غارقة، ومن ثمة معرفة المجهول. لم تعد أعماق مياه بحرنا خارجة عن سيطرتنا إذن؛ نحن الموكولون بمهمة مراقبة وحراسة الثغور البحرية، وما يجري في أغوار وغابات البحر.

كانت سفينتنا ذاهبة في مسار، وفي آخر مواز له في إياب؛ على طول الساحل الممتد من مدينة (الرباط) إلى مدينة الجديدة؛ يسبر جهازها الجديد؛ فلم يخطء؛ فقد نقل أول جسم معدني.

فمضى رئيس فريق الاختبار يقرأ على الشاشة خط الدائرة الشعاعي المتحرك؛ يغطي دائرة السّبر، وأرقاما يتزايد عدها، وتحسب العمق الذي يستقر فيه الجسم المرصود؛ فانبهر الجميع، وبرقت عينا رئيس الفريق، ولم يقاوم حماسة همزته؛ فالتفت إلى الربان وقال برجاء:

– لو تفضلت أيها الربان فأوقفت المحركات.

نادى ربان السفينة بالأمر؛ فخمدت أسطوانات الدفع، ثم طفق رئيس الاختبار ينقل ناظريه؛ بيني وبين نظيري الرئيس؛ قائلا:

– ما رأيكما؟

لم ننبس ببنت شفة.

قال مرة أخرى:

- ما طبيعة هذا الجسم؟

لم يجب نظيري الرئيس، ونظر إلي قائلا:

- هل تستطيع تحديد ماهيته أيها الغواص؛ آنطلاقا من شكله؟

قلت بدون تردد:

- قد يكون حطام سفينة، أوطائرة، أوغواصة.

ثم أردفت سائلا:

- على أي عمق يوجد؟

اختطف قائد الإختبار عددا بعينيه النهمتين؛ كان الجهاز قد سجله، وقال:

- حسب ما سجله الجهاز فهو على عمق ثلاثمائة متر.

نظرتُ طويلا في وجه نظيري الرئيس؛ مُفكرا فيما سألت عنه، وقلت بعد لحظات تأمل وتفكر:

- للتعرف على هذا الجسم لا بد من غطسة.

برح قائد الاختبار كرسيه، وقام قائلا:

- لقد خبرتَ أيها الغطاس أعماق البحر؛ فلا عائق يُثنيك عن هذه التجربة الفريدة.

قاطعته قائلا:

- لا أرى فيها أي تفرُّد، فقد تدربت في فرنسا على الغوص في أعماق تزيد عن ما نقله هذا الجهاز.

جال ببصره على صفحة وجهي، وقرأ شيئا ما أرابه؛ قال:

- لعلك تريد أن تُفصح، وتزيد عنما تفوهت به.

قلت:

- الغوص في شعاب هذه الأعماق، وبوقت كاف لاستجلاء أمر الجسم؛ يحتاج إلى مُعدات غير قنينة الأكسجين وأنبوب التنفس واللباس العازل للحرارة و...و...

لم يكن نظيري الرئيس أقل آستغرابا من أفراد بعثة الاختبار؛ فكان أول السائلين؛ قال:

- هل نعود مُدبرين بعد أن عسكرنا في الميدان؟ لم ننجز إلا القليل، والوقوف على ما يقبع في المياه هو الغاية؛ وما الجهاز إلا الوسيلة؛ فما تحتاج إليه نافذ لا تقصير فيه.

قلت:

- إنها العدة التي تمكن من ارتياد الأعماق بنجاح: الخوذة النحاسية، والحذاء الحديدي الصلب، وثُقّالات الرصاص المساعدة على الهبوط، أما الأكسجين فيتدفق من قنينة كبيرة؛ مثبتة على سطح السفينة؛ عبر أنبوب من اللّدينة[9]؛ متين ومرِن؛ يُتيح حرية في الحركة.

كان نظيري الرئيس على علم بهذا النوع من العدة، ولأية كيفية للغوص صُمّمت؛ فأومأ برأسه وقال:

- دونك ما تحتاج.

لم تمض ساعة؛ حتى سمعنا هدير محرك المركب؛ الذي يحمل إلينا عُدّة الغوص.

ارتديت لباسا للغطس في الماء بنسيج اصطناعي؛ ينتهي بحلقة معدنية تطوق العنق؛ بها زوائد ماسكة للخوذة التي ينسرب إلى

[9] مفرد اللدائن.

داخلها ومن الأنبوب الطويل الأكسجين لأستنشقه، وعقد أحد البحارة طرف الحبل في الحلقة البارزة من قمة الخوذة؛ فنزلت إلى الماء، واستسلمت لثِقْل الرصاص؛ فهوى بي في ظلمات مياه البحر، ويدي اليمنى تمسك باستماته بمصباح يدوي تحت الماء؛ يرسل ضوءا ساطعا بعشرات الأمتار، وعلى مرفقي سوار من خيط بلاستيكي؛ طال لتُربط في طرفه لوحة تسجيل تحت الماء؛ تُلملم قلما كالإسفين، وبوصلة لضبط الاتجاهات الجغرافية؛ ساحبا معي الحبل المفتول، وأنبوب الأكسجين، تاركا ورائي جمعا؛ يرقُب أفراده الموقف بحيطة وحذر.

وطئت قدماي، وبالحذاء الثقيل أرض قاع البحر؛ قد يضاهي نزولي ذاك ما خلفه رائد الفضاء من آثار حذائه على سطح القمر؛ كانت أولى مخلفات الإنسان خارج الكوكب الأزرق؛ كلانا نتزود بأكسجين معبأ، ونسبح في أفضية خالية؛ في كل خطوة من خطواتنا تمهيد لمن يأتي من بعدنا.

استطعت أن أمشي؛ وأنا أخاف تعثرا؛ أقاوم الماء؛ كان كتلة تصدني. صوبت نور المصباح؛ فاصطدم ضوؤه بأجزاء معدنية من الجسم الغريب؛ كان مكسوا برداء من القواقع، والأصداف، والنباتات، والعوالق البحرية؛ لم تتحلل منه أية قطعة؛ كان بيضاوي الشكل، وما إن تأملته حتى تراجعت ثلاث خطوات إلى الوراء؛ من هول ما عثرت عليه؛ لقد كان الجسم قنبلة، وبعد أن استرجعت هدوئي؛ تقدمت وسجلت بقايا كتابة بحروف لاتينية، وقِستُ طوله وعرضه ومحيطه، وحددت وضعه، واتجاه مقدمته، وقاعدته؛ بالنسبة للاتجاهات الجغرافية. وطُفت بمحيطه، فلم أجد شيئا غيره ذا بال،

ثم جذبت الحبل بقوة؛ باعثا برسالة إلى من ينتظر عودتي من الأعماق؛ فرفعني الحبل إلى الأعلى؛ مُستأنسا بالكائنات البحرية.

كنت أُدرك أن صِحابي بالسفينة مُنبتة عيونهم في سطح الماء؛ ينتظرون بهَمٍّ وبشوق أيضا ما أحمل بجوزتي من أخبار، وتبحث بين ذِروات الموج عن الخوذة؛ لتلمع قمتها النحاسية بأضواءِ السفينة الكاشفة. رأيت من خلال كوة الخوذة الزجاجية؛ بساط البحر الشفاف، وعندما طُفوت بيدي؛ رأيت الأيدي الآدمية تُصفق، ولا أسمع صوتها؛ إعجابا وتشجيعا؛ ثم سُحبت إلى سطح المركب.

حُرِّر تقرير وأودع ملفا كُتبت عليه كلمة (سِرّي) المعتادة، ولم تبزغ شمس صباح اليوم التالي حتى كانت السفينة ترسو؛ وركابها سكوتا؛ أضناهم سهر ليل نوفمبر الطويل، وبُعِث بذلك التقرير إلى مركز القيادة البحرية العليا؛ بآلة الفاكس، وقُرِئ الرد بعد نصف يوم؛ الذي كان أمرا في البحث عن تفاصيل حدث القنبلة الكاملة؛ على مسمع من أفراد مجموعة؛ عُيّنوا للتحقيق في وجود القنبلة بالحجم الكبير؛ بمياه المغرب الإقليمية، وكنت أنا ونظيري الرئيس من بينهم. ثلاث قضايا طُرحت للنقاش؛ أولاها فهم دلالة الحروف، والأرقام التي نقلت من القنبلة؛ ثانيها معرفة حكايتها الحقيقية؛ ثالثها وكان سؤالا: هل هي خامدة، أم قابلة للانفجار، وتحتاج إلى عملية إبطال؟

كانت الحروف والأرقام قد نُسخت على عدد من الأوراق، ووُزعت بين الحاضرين. كان أول الناطقين خبير القنابل؛ قال:

– عادة ما تحمل القنبلة حروفا تختزل كتابة البلد المصنِّع، ورقم القنبلة التسلسلي، وتاريخ الصنع، وشكل هذه القنبلة مُتقدم من حيث العصر.

قال الباحث في تاريخ الأسلحة العسكرية والحروب:

– إنها تعود إلى زمن الحرب العالمية الثانية؛ فما تزال مئات الآلاف من القنابل مُنتشرة في أقطار أوروبا وخارجها؛ أُلقيت ولم تنفجر، وفي كل سنة تطلع علينا الصحف؛ بأخبار العثور على قنابل مثل هذه القابعة في أعماق بحرنا؛ قد يتراوح وزنها ما بين مئات الكيلوغرامات وعشرات الأطنان، ولو اطلعنا على التاريخ؛ لعلمنا أن ساحل مدينة الدارالبيضاء والمحمدية شهد حدثا كونيا.

وتنقلت عيناه المحدقتان بين الوجوه؛ ممتحنا الجميع؛ فلم يتلق غير الاستسلام، ولم يجب أحد منهم على الأُحجية. قال:

– إنه إنزال قوات الحلفاء بشاطئ (فضالة)؛ أحد ثغور منطقة الشمال الإفريقي، واجتماع الزعماء المتحالفين في مؤتمر ضد دول المحور بـ(الدارالبيضاء)؛ في شهر يناير سنة 1943م، وهم: تشرشل الإنجليزي، ودوكول وجيرو الفرنسيان، وإيزنهاور الأمريكي.

قال نظيري الرئيس:

– هل هذا يعني أن للقنبلة علاقة بما ذكّرتنا به؟

قال المؤرخ العسكري:

– هو احتمال، وقد لا أستبعده؛ حتى يثبت العكس.

قال خبير القنابل:

– هل تُثبت دلالة الحروف المختزِلة للمعلومات صحة ما تقول؟

فهم الجميع ما توجبه ورقة الحروف؛ فآندس كل واحد بكامل تفكيره في الورقة؛ فكانت بحق امتحانا ذهنيا، وطال الوقت.

قال خبير القنابل:

– نُقحم عنصرا آخر قد يُساعدنا؛ لا يُعقل أن يتخلى جيش الحلفاء عن هذه القنبلة.

قال المؤرخ العسكري:

– قد تكون إحدى دول المحور؛ ألمانيا أو إيطاليا أو اليابان.

قال نظيري الرئيس:

– ألمانيا؛ ولا يُشك في هذا الجانب؛ لأنها كانت الصائلة والجائلة؛ بغواصاتها وبوارجها في المحيط الأطلنتي.

قال خبير القنابل:

– كاليغرافيا الحروف؛ أي رسمها تُثبت هذا؛ إنه خط موروث عن امبراطورية ألمانيا المقدسة، أما الأرقام فهي العقد الثالث من الأربعينيات، والعد التسلسلي للصنع؛ ومقارنتها بنسخة أخرى يؤكد ما توصلنا إليه.

طُلِبت إحدى صور قنابل ألمانيا النازية؛ فجيء بها من أرشيف ومحفوظات المكتبة، فكان التطابق، والتماثل واضحا، وما توصلوا إليه من استنتاجات صحيح.

قال المؤرخ العسكري:

– إذن فهي إحدى قنابل (الرايخ) هذه التي توجد في مياه بحرنا.

اِنبهر الجميع، ثم أردف المؤرخ العسكري:

– إذن؛ ما تفرضه المرحلة اللاحقة؛ هو السعي إلى معرفة قصة وجودها في هذا المكان؛ من ساحل إفريقيا الشمالي الغربي.

قال نظيري الرئيس:

– ليس لدينا ما يُسعفنا على البحث عن كامل عناصر الحدث: أين ومتى، ومن، ولماذا، ولأي هدف، وما قد يُوثّق في حينه عن القنبلة، فهو محفوظ في (أرشيفات) أصحاب القنبلة؛ الألمان.

قال المؤرخ العسكري:

– إذن نوفد أحدنا إلى ألمانيا، أو نبعث برسالة آلتماس.

قال خبير القنابل:

– نبعث برسالة؛ ما دام طلبنا يتعلق بحادثة مر عليها أكثر من أربعة عقود، ولعل الألمان أكثر همّاً بالقنبلة؛ لاستجلاء أمرها، وما تداعى عنها من أحداث أخرى.

حُرّرت الرسالة بالفرنسية، وتمت ترجمتها إلى اللغة الألمانية. بعد أسبوع صاحبْتُ فريقا من الضفادع البشرية؛ انتدبته دولة ألمانيا الغربية، لمعاينة القنبلة، وقد قاموا بهذا، ثم رحلوا، وبعد ستة أشهر تلقت القاعدة البحرية الرئيسة بـ(الدارالبيضاء) تحريرا لقصة القنبلة في أربعين صفحة؛ فهذا ملخصها:

«في إحدى ليالي شتاء سنة 1942م؛ أبلغ جهاز الاستخبارات الألماني؛ قادة الحزب النازي بأن دول الحلفاء: فرنسا وانجلترا وأمريكا؛ تُحضّر لاجتماع قادتها في مؤتمر بمدينة (الدارالبيضاء) المغربية؛ يدعون فيه الزعماء الأربعة دولَ المحور إلى الاستسلام بدون قيد أو شرط، وأنه يُخطط لإنزال قوات في الجيش الإنجليزي والأمريكي؛ على شاطئ مدينة فضالة والجزائر ووهران؛ وذلك بهدف التضييق على الوجود العسكري الألماني بشمال إفريقيا، وإفشال قواته، وفي وقت قامت قوات الحلفاء بغزو إيطاليا؛ إرتأت

ألمانيا أن توجه ضربة قاصمة إلى دول الحلفاء بنسف قواتها الرابضة بساحلي إفريقيا الشمالية؛ على البحر الأبيض المتوسط، وعلى المحيط الأطلنتي؛ في المغرب، أو في الجزائر، وإرباك تحضيرات مؤتمر قادة الحلفاء، وتهديد حياتهم؛ فخُطّط للعملية بذكاء وبإحكام.

كانت الخطة التي رُسمت من طرف مخططي الاستراتيجية العسكرية؛ هي نقل قنبلة بوزن طُنّين، وبطول مترين، وبمحيط متر ونصف؛ إلى ساحل المغرب؛ إما بسفينة، أو بطائرة ذات دعامتين تنساب بهما على مياه سطح البحر؛ إذن فأي مسار آمن ستسلكه؟

لا تُستأمن أجواء أوروبا الغربية؛ إذا ما تم اختيار الطائرة وسيلة لنقل القنبلة، أما بالسفينة فخط بحري واحد؛ ينطلق من ساحل شمال ألمانيا على بحر الشمال، ويمر من بحر المانش؛ فيَلي هذا الأخير شمال الأطلنتي؛ الذي يفسح مجال الإبحار إلى ساحل إفريقيا الشمالي الغربي، فجميع هذه المساحات البحرية ذات مسافات طويلة، كما أنها ميدان لمعارك بين الغواصات الألمانية، وسفن الحلفاء التجارية، وبوارجهم الحربية؛ فتزحزح تفكير أفراد الفريق؛ الذين يدرسون الخريطة، والتنقل بالقنبلة في المسافة الجغرافية، إلى جنوب ألمانيا لتُنفذ أطوار رحلة المغامرة.

أقلعت طائرة حربية حاملة القنبلة؛ يتكون طاقمها فقط من الربان وميكانيكي، وقارئ للخرائط الطبغرافية؛ يُملي نقط خط الطيران؛ في الساعة الواحدة ليلا؛ من أحد أرصفة مطار (ميونيخ). حطّت بعد ساعات في أرضية مطار مهجور؛ قريبا من مدينة (فينيسيا) الإيطالية، ثم شُحنت القنبلة برا إلى ميناء صغير على خليج

(فينيسيا)؛ على بحر (ليغوريان؛ Ligurienne)؛ كان يرسو على رصيفه مركب صيد؛ أودعت في بطنه القنبلة. كان جميع هذا استخفاءاً. أبحر المركب في جو عاصف؛ يكتنفه ضباب كثيف؛ في اتجاه جنوب- جنوب- شرق؛ إلى ميناء (نابلس)؛ قطع مسافة 618 كلم؛ ليُبحر في الخط البحري المتجه غربا إلى جبل طارق؛ بمسافة 1810 كلم، وبعد اجتيازه للمضيق غير اتجاهه إلى جنوب- جنوب- غرب؛ سالكا الخط البحري المتجه إلى جزر (كناري)؛ لن يصل إلى هذه الجزر؛ فقد توقف في المياه الدولية إلى الشرق من جزر (مادير)، وإلى الغرب من ساحل المغرب، وغير بعيد عنه كانت غواصة ألمانية، تربض في أحد مغاور أعماق المحيط الأطلنتي؛ لتلفظ غطاسين؛ ينتمون إلى فريق من البحرية العسكرية الألمانية؛ يؤدون المهمات باندفاع وباحترافية، وكانت قد أُنزلت القنبلة في ظلام الليل تحت سطح البحر؛ في عمق المياه؛ مُعلقة بحبال مشدودة إلى طوافات. ضرب أعضاء فرقة الضفادع البشرية بزعانفهم في اتجاهها؛ فتلقفوها، ثم زحفوا بضربات قوية وسريعة من الزعانف؛ في اتجاه المكان المعين للنسف؛ إنه أرصفة ميناء الدارالبيضاء؛ التي كانت بوارج وفرقاطات وطرادات الحلفاء راسية على حيطانها، أو غير بعيدة عنها.

هل لم يتم رصد الغواصة الألمانية من طرف الأعداء؟ هل كان قائدها يعلم بأن غواصته لم تستخف، وأنها كانت مرصودة؟

قد يكون على دراية بذلك؛ لذلك قيل بأنه استعجل الغواصين لبلوغ الهدف وتحقيقه؛ غير أن من كانوا يتوارون خلف شعاب أعماق البحر من غواصي الحلفاء؛ باغتوا الغطاسين الألمان بهجوم

بسكاكين. لم يُفاجأ الألمان؛ فهم في ميدان المعركة، وهم في تقدمهم يفكرون في كل الاحتمالات؛ فعمدت أيديهم، وبدُربة إلى سكاكينهم التي كانت في أغمادها المشدودة إلى سيقانهم؛ فالسكين هو سلاح الغواص الوحيد؛ فيحاول أن يقطع الأنبوب الذي يعُبّ به عدوه الأكسجين؛ ولا بديل له فيموت اختناقا؛ فجرت مبارزة وصراع بالسكاكين. كان أول ما فعل أحد غطاسي الحلفاء هو قطع حبال حمل القنبلة؛ فهوت هذه الأخيرة، واستقرت في عمق البحر، وقد أيقن الغواصون الألمان أن ما كُلّفوا من أجله؛ قد أفلت من أيديهم، ويستحيل استرجاعه؛ فتراجع من احتفظ بأنبوب التنفس، ولاذ بالفرار في مياه البحر المظلمة، هل سبح في اتجاه الشاطئ؛ ليختفي إلى حين من الوقت؛ أم قضى بعد أن نفد الأكسجين؟ فما نقلته التقارير في ذلك التاريخ، أن جميع أفراد فريق الغوص الألماني فُقدوا، ولم تسنح ظروف الحرب آنذاك باقتفاء أثرهم وإغاثتهم».

طأطأت رأسي مُتأملا ما حُكي؛ كثيرا ما خُضت في الغوص، وكانت فيه مكابدات ومحن، وعجبت؛ بل نظرت باستكبار إلى هؤلاء الغواصين الألمان؛ كيف أبلوا بلاء حسنا في أخطر عملية غوص في تاريخ حروب أعماق البحر؛ لإفشال توسعات عدوهم العسكرية، وامتدادات الحلفاء القارية، ثم بعد هذا، وما يُستشف مما رُوي، فإن مُؤقّت القنبلة لم يُبرمج؛ كان سيقوم الغواصون الألمان بذلك؛ بعد وضعها في المكان المحدد سلفا؛ فظلت طيلة هذه المدة هامدة، وقد حان الوقت للقيام بعملية إبطال، وتفكيك.

أُستُدعيتُ لاجتماع حضره خبيرُنا في القنابل، وآخر ألماني حل بالقاعدة البحرية؛ مُتسلحا بوثائق، وبمعدات خاصة متطورة؛ عرض أمامنا تصاميم القنبلة؛ لا أقول إلا أنها في غاية الدقة، وكل ما رُسم على الورق مُفصل بمعرفة وافية؛ كنت قد أدركت دوري؛ فهو تلقين خبيرا القنابل بعض قواعد الغطس؛ التي تفرضها بيئة البحر التي توجد فيها القنبلة، وإرشادهم، والمحافظة على سلامتهم؛ لأننا ثلاثتنا سنغوص لمهادنة هذا الكائن المستكين، ومخاتلته.

قام الخبيران -ونحن نعب جميعا الأكسجين، وغدت صدورنا كمضخات في عمق؛ لا يظهر منه غاطس السفينة المُصاحبة والمُراقبة لأطوار العملية-ودون تردد أو خوف بفك براغي الغطاء، وفصلا حلقات التّماس المحدثة للانفجار، وشرعا بتفكيك القنبلة إلى قطعها التي رُكبت منها؛ فغدت خُردة من صفائح، وإطارات من الحديد الصلب؛ ملأت سلة حديدية؛ جذبتها الرافعة بحبال من أسلاك معدنية مفتولة، ثم احتواها صندوق خشبي؛ وُضع على متن طائرة أقلعت به؛ في اتجاه أرض مهدها ألمانيا؛ لتُركب من جديد، وتغدو من محفوظات المتحف العسكري؛ تُذكّر بأكبر مغامرة غوص؛ في تاريخ البشرية البحري.

إلى بحر (نواكشوط)[10]

في صباح مشمس من الأسبوع الثاني من شهر مارس؛ من سنة 1982م؛ كنت قد خطوت في اتجاه مكتبي؛ آتيا من بيتي في وقت متقدم؛ إذ سمعت جرس الهاتف يرن؛ فخففت إليه؛ ورفعت سّماعته إلى أذني؛ فتدفقت علي كلمات نظيري الرئيس؛ آمرة كالعادة؛ قال:

– صباح الخير؛ أريدك الساعة في أمر آت من أحد بلدان الشمال؛ لا تتأخر.

قلت وأنا أفكر فيما نطق به:

– لن أتأخر؛ سأكون عندك بعد خمس دقائق.

أعدت السماعة إلى موضعها، وظلّت عيناي تنظران في بقعة؛ أضاءتها شمس طلائع فصل الربيع، وصب طائر قادم من بعيد تغريدة في أُذني؛ أدفأته حرارة الجو، ثم برحت مكان عملي، ولم تمتد يداي إلى ما ظل مُبعثرا على مكتبي؛ من مسودات، ومطبوعات منذ مساء أمس، وأخذت طريقي إلى مكتب نظيري الرئيس؛ طرقت الباب الموارب؛ فسمعت:

– أُدخل يا غواصنا القدير.

حييته مبتسما، وعيناي تقرآن آثار ما يُبطن على وجهه؛ كانت أساريره منفرجة. قال:

– نحن لم نكن طرفا فيما خُطّط له في فرنسا؛ فقد وردت برقية تطلب منا إخبارك؛ بأنك ستكون ضمن طاقم إحدى الفرقاطات

[10] نواكشوط: عاصمة (الجمهورية الإسلامية الموريطانية).

الفرنسية؛ التي ستغادر إحدى مراسي غرب أوروبا؛ إلى أين؟ لا أدري.

قلت باستفهام:

– أمر مُستغرب؟

قال:

– خمّنت؛ بما أنه تم اختيارك لأنك غصت في بحار العروض الجغرافية المدارية، ومياه البحار الدافئة، وخَبرتها؛ فلن يكون مسار الرحلة البحرية إلا في هذا المجال، أو أبعد منه قليلا.

قلت:

– أنا كالجواد الجموح؛ الذي يتشوق لميادين النّزال؛ ولجت مياه البحر المالح؛ العميقة منها والضّحلة، والشفافة منها، والمحدودة الرؤية؛ وعمري لم يتعد عشرين عاما.

قال وهو يومىء برأسه:

– ودافع آخر؛ وهو أنك تلقيت تدريبك في الغوص بإحدى مدارس فرنسا البحرية؛ فأنت مُتأقلم مع نظامهم في ارتياد البحر؛ ليسوا مُرغمين ليشرحوا الحيثيات.

قلت مُغتبطا بما حمله إلي من أخبار:

– لم أستعذر يوما؛ فقد كنت دائما مُتأهباً.

ثم رأيت يده تمتد إلى يمينه؛ تناول بها محفظة جلدية زرقاء اللون؛ برزت من جلدها حروف كتابة؛ فقرأت هذا: البحرية العسكرية المغربية، وبرز رسم مرساة يلفها حبل مفتول؛ إنه شعار بحريتنا، ودفعها إلي قائلا:

– في طيات هذه المحفظة وثائق التكليف بالمهمة، وجواز سفر، وتذاكر الطائرة؛ هذه الأخيرة ستُقلع في ليل هذا اليوم على الساعة التاسعة من مطار الدارالبيضاء؛ ستنقلك إلى هناك سيارة تابعة للقاعدة البحرية؛ أما وجهة رحلة الفرقاطة الفرنسية فإنها في طي الكتمان، وستُوافينا بها بحرية فرنسا فيما بعد؛ لا غرابة في هذا؛ فإنك تعرف؛ رافقتك السلامة.

تكلم بهذا وقام مادا يده؛ فصافحته بحرارة؛ كان أثر الافتراق باديا على وجهه، وكانت عيناه تعبر عما يجول في خاطره؛ من مشاعر وأحاسيس كثيرة. كان يُشاركني الفخر، والرِّفعة، وطمأنينة النجاح. خطوت إلى الوراء، وأديت له تحية التفاني؛ تقديرا واحتراما له؛ ثم خرجت؛ فانهالت على تفكيري تحضيرات السفر، وفي طريق رجوعي إلى البيت؛ قررت أن لا أستسلم لمتاهات التهييء للرحلة؛ فالحقيبة الجلدية التي اشتريتها؛ ما تزال محفوظة بحالتها الأولى في غلافها البلاستيكي؛ ستتسع دون شك لأكسيتي الداخلية والخارجية؛ فلا يشغل يدي طيلة زمن السفر غيرها والحقيبة الجلدية الزرقاء.

لم تمض ساعات الظهيرة؛ ويرحل ضوء الشمس عن حيطان البيوت المجاورة، وسُمع بعد ذلك آذان المغرب؛ حتى كنت مستعدا، ومر وقت؛ فوجدتني قائما، ووالدتي وزوجتي أمامي تدعوان لي بالعودة بسلام، أما الأشبال من أصلابي؛ فكانوا يتحلقون حولي في فوضى، ويُمطرونني بفيض من الأسئلة، ثم نطقت بما آمل، وبما يخفف وطأة الفراق:

– سألقاكم جميعا، ولا هم على حياتي؛ فإني حريص، والإيمان بالقدر ركن من ديننا.

سمعت بعد ذلك دُنوّ هدير سيارة، ثم ارتفع صوت مُنبّه؛ فحملت حقائبي، وملأت بها صندوق المركبة، وما يزال المحرك الانفجاري يُصدر نغمه الميكانيكي، وأنا آخذ مكاني بجانب السائق الذي لم ينتظر لحظة؛ فمالت يداه بالمقود إلى اليمين، وانطلق يراوغ، ويرتّب السيارة في الطوابير المسرعة إلى مطار الدارالبيضاء الدولي.

لم أكن أعلم في أي اتجاه على سطح الكرة الأرضية سأسافر، أو بالأحرى سيُسافر بي؛ لم أتكبد عناء السؤال، فنطقت إحدى مضيفات الطائرة الشقراوات في ناقل الصوت:

– إن الأحزمة للشدّ. ستُقلع الطائرة. بعد قليل سنكون على ارتفاع في خط طيران يتجه إلى باريس.

عرفت حينئذ إلى أين أُحلّق، ولم أكن وحدي؛ فإني في سرب من المسافرين، وبعد زمن لم أضبط مدته بالساعة؛ فقد غافلتنا عنه ابتسامات المضيفات، وطعام وشراب يُحضران بنكهة جديدة، ويُقدمان لك بحفاوة.

نقل جهاز الصوت مرة ثانية إعلاما:

– ستهبط الطائرة بعد ربع ساعة في مطار باريس–أورلي[11]. نعمتم بسلامتكم.

رأيت في بهو المطار الكبير بعض اللافتات مرفوعة بعصي؛ تمسك بها أيدي آدمية؛ قرأت في إحداها: (غواص البحرية المغربية)؛ قلت

---

[11] أول مطار منظم في العالم؛ أفتتح في 23 ماي 1909؛ يبعد عن العاصمة الفرنسية باريس ب 14 كلم.

في نفسي: «هي صياغة يحب الفرنسيون التشدق بها»؛ فانطلقت في اتجاه حاملها؛ تفرس في وجهي؛ ثم خاطبني بالفرنسية؛ بما ترجمته:

– أهلا بكم في مدينة الأنوار، والعطور الأخّاذة.

لم أهتم بما تفوه به، وأدركت أن علي أن أحسن التخاطب بالفرنسية، وأن رحلتي بها قد بدأت على التو. قلت:

– نعِمتم بسخاء عاصمتكم.

قال:

– سنأخذ قطار الساعة الواحدة؛ الذاهب إلى مدينة (بريست)؛ حيث أُرسلت من هناك للقائكم؛ من طرف قائد القاعدة البحرية، ومرافقتك.

شكرته؛ فرد بإيماءة من رأسه، ومضى خارج مرافق المطار وأنا أتعقبه؛ فنادى على سائق تاكسي؛ هذا الأخير تململ في كرسيه وقاد مركبته وحاذى بها أقدامنا؛ ثم نُقلنا إلى محطة القطار؛ بعد عشرين دقيقة كانت القاطرة الكهربائية قد انخرطت في خط القضبان الحديدية المتجه غربا؛ إلى مدينة بريست؛ الواقعة على (البحر السلتي؛ Mer Celtique) .

آويت إلى نُزل اسمه: (*Hôtel de la Corniche*)؛ فندق ليس كالفنادق؛ هو أقرب إلى بيت بطابقين؛ تغطي سطحه صفائح الأردواز الداكن اللون؛ تحيط به حديقة؛ يخترقها ممر مرصوف بحجارة من صخر الصلصال؛ يُنيره فانوس كهربائي؛ حوامله مطلية بالأزرق، وبِتُّ فيه باقي ساعات اليوم. في الساعة الثامنة والنصف جاء من سيرافقني استئناسا إلى المدرسة البحرية؛ التي تقع في ضفة خليج (بريست) الجنوبية، ومقر البحرية الوطنية، وفي اجتماع بهذا

الأخير؛ أُبلغت أن الفرقاطة الفرنسية ستُبحر غدا مع تباشير الصُّبْح؛ سالكة الخط البحري رقم 11347 كلم؛ الذي يربط بين لندن ورأس الرجاء الصالح؛ إلى أين؟ لم أكن أدري بعد.

ألفيت وجوها كنت قد تعرفت عليها في بعثات التدريب السابقة، وأشخاصا تعرفت إليهم؛ مختصون في الغوص، ودارت أحاديث بيننا؛ كان كلامي أننا نخوض تجارب غطس في المغرب، ونُراكمها، ولنا مدرسة متفردة، ولنا تلاميذ ضباط وعُرفاء.

في الغد وفي خضم غِلالة من ضباب البحر؛ أسلمت قدمي إلى سطح الفرقاطة الرمادية اللون؛ طبعا كان أول البحارة برتبة ضابط وجدتني أمامه وجها لوجه هو القبطان؛ استقبلني ببشاشة؛ ثم الذي يقف بجانبه؛ مساعده؛ هو الآخر مد يده للتحية.

أول ما لفت انتباهي هو تصميم المركب الحربي؛ فبالرغم من طلاء صيانة الهيكل؛ فإنه يُصنّف على أنه من القديم، كما أنني رأيت انسياب الصدأ السائل على بعض مفاصل الأنابيب، وقضبانا متأكسدة، وما لاحظت أيضا في قوام وشخص القائد؛ عمر مديد وسكينة وتباطؤ، ثم جذبت عيناي اللواقط المنصوبة أعلى (كابينة) القيادة؛ كانت أيضا بعُمر القائد. علمت فيما بعد أن الفرقاطة؛ لما انتهي من بناء هيكلها وتجهيزها؛ بمعدات الإبحار لم تجد القيادة البحرية العليا من البحارة المتخرجين آنذاك والقدير؛ غير هذا القائد، وكان حينذاك شابا قويا؛ يتدفق حيوية؛ فزُفت إليه الفرقاطة في احتفال رسمي؛ عُزفت فيه موسيقى البحرية الوطنية، وألهب التصفيق أيدي المتيّمين بالبحر، بالسفن المبحرة في البحار والمحيطات؛ فنظرت إليه بإعجاب، وعطف وأسى؛ لما قضاه من

سنوات عمره في خدمة الفرقاطة، ولما سيؤول إليه بعد التقاعد، وتساءلت: إلى أية جهة سيبحر بها؟ هل لكي تكون آخر رحلة له على ظهرها؟

اِلتقطت أذناي ما تبادله بعض أفراد الطاقم من كلام؛ أدركت منه أنها ستُمنح للخدمة لبلد آخر من الجنوب؛ إنه (الجمهورية الإسلامية الموريطانية)؛ لذلك سنُبحر في الخط البحري المتجه إلى ساحل إفريقيا الغربي.

وما كدنا أن نبرح مياه خليج (الگاسگون؛ Gascogne)؛ الشمالية الغربية، والمحصورة بين ساحل فرنسا من جهة الشرق، وساحل إسبانيا من جهة الجنوب؛ حتى تعطلت لواقط المركب وأجهزة الاستقبال؛ فلم يجد القائد العجوز والمخضرم غير أدوات الإبحار الأولى؛ خرائط الملاحة البحرية، والبوصلة، والمسطرة، والبركار؛ لم أنظر إلى أدائه بريبة؛ فما أبدته فراستي أنه كان وسيكون؛ أقدر من جابوا البحار والمحيطات بالسفن على الإبحار؛ دون أن يترك سفينته تجنح بنا إلى شطآن الهلاك.

لن يظل قارئ الخرائط الجوية يتأمل الرموز طويلا؛ فقد بادر في مساء اليوم الثاني من رحلة تسليم السفينة إلى إخبار القائد؛ بأن آيات عاصفة بحرية ستظهر في أفق الجنوب الشرقي بعد ساعة؛ بسبب تزحزح اضطرابات جوية قادمة من جزر (الآصور)؛ فوجه القائد أمرا إلى مساعده بأن يراقب عقرب البوصلة بحرص وحيطة، وأن يُدير دفة التوجيه؛ ليأخذ المركب اتجاه جنوب-جنوب-غرب؛

نحو جزيرة (بورتو سانتو[12] Porto santo)؛ وذلك للرسو في رصيف مينائها (Porto Santo Harbor) ، وللاحتماء بحاجز تكسير الأمواج، وقد فعل. لم نبرح مركبنا، وجاوب القائد القائمين على شؤون الجزيرة؛ حول سبب انتهائنا بالسفينة إلى جزيرتهم، وأظهر أوراق هوية البحارة؛ أما أنا فقد جعلت سُحنتي المراقبَ يوجه السؤال إلى القائد مُشيرا إليّ بسبّابته؛ فبسط القائد أمام ناظريه أوراقا مختومة، ولأننا لسنا في سياحة، ومهمومون بالمسافة البحرية الطويلة؛ فبمجرد ما بشّرنا المتنبّئ بأحوال الطقس بانفراج في الجو؛ غادرنا الجزيرة التي لا تُغري زائرها إلا بما ألفت عيناه من منازل منتثرة بانعزالية مخيفة، وطبيعة لا تنوع فيها؛ فلا يستمرئ المقام؛ فيُولّي لها ظهره بعد يوم أو يومين، وقد لا يُفكر بتاتا في زيارة أخرى لها.

لكن المركب تلكّأ بنا، وتباطأ؛ فنودي على الميكانيكي وسُئل:

- هل حدث عطب في المحركات؟

أجاب بخبرة:

- ما ألجم المحرك خارج عن نظام احتراق الوقود، والدوران، والتسريع، ودفع الأسطوانات.

قال القائد ناظرا طويلا في وجه الميكانيكي:

- هل كبح شيء المراوح؟

قال الميكانيكي:

- لنتأكد.

[12] تبعد عن ساحل المغرب وإلى الغرب منه بتسعمائة كلم تقريبا. تقع في خط عرض مدينة الجديدة. إحدى جزر مادير.

نظر القائد في عيني بهدوء وقال:

– لنرى أيها الغواص ما حدث في عمق المياه.

قلت:

– هذا ما وجدتني أفكر فيه اللحظة أيها القائد.

أسرع بحاران إلى مستودع مُعدات الغوص؛ فحملا ما يُؤهّلني دائما من الغطس، ومعاينة دقيقة لما حدث، ونزلت درجات سلم حديدية، واختفيت عن أنظار لا أحسب إلا أنها ظلت تترقب ظهوري لتعرف السبب، وبالتالي معالجة ما أخّر الجمع زمنا، وإن كان بعشرات دقائق فقط. دفعتني الزعنفتان فاخترقت الماء بجذعي، ورميت ببصري عبر الدائرة الزجاجية؛ فرأيت شبكة صيد، وقد جُذبت حبالها إلى صفائح المروحة بلف معقود مما ألجم دراع الدوران؛ فتراجعت وانبثقت برأسي من سطح الماء، ورفعت وجهي إلى العيون المتسائلة، وتحدثت إلى القائد بتفاصيل الواقعة؛ فقال:

– لا بُد من تحرير المروحة.

قلت بصرامة:

– أحتاج لسكين الأعماق بشفرة قاطعة.

أُلقي إلي بذلك السكين؛ تلقفته، وغطست، وما زلت أقطع حبال الشباك ذات الألياف البلاستيكية الاصطناعية؛ حتى تخلصت منها المراوح، وغادرت المياه.

قال القائد بامتعاض واضح:

– إنها شباك صيد مرمية بإهمال في مدخل الجزيرة.

ضُغط على زر تشغيل المحرك؛ فسُمع صوت الهدير المتناغم؛ فأطرب له أفراد الطاقم، وتحرك هيكل الفرقاطة يتصدى للأمواج

بمقدمته الحادة؛ يُستمتع بسيرها الرتيب والمألوف، وما صادفناه في المحيط المائي بعد ذلك كاد أن يُنسينا الغاية التي من أجلها تكبدنا مسافة 1800 كلم من السفر في البحر، وما يزال خط مسارنا ممتدا، ويكشف عن خبايا ما يحدث في أرجاء البحر، وفيما يُشْحن غير ما يُصرّح به، وما ليس فيه ضرر، فماذا حدث؟

بعد نصف يوم من الإبحار؛ ظهرت على يميننا جزيرة مأهولة وعامرة بمظاهر مدنية العصر؛ عكس التي لُذنا بها لبعض الوقت، وعلى يسارنا جزيرة صخرية جرداء؛ تمتد طولا؛ لا أثر للنبات فيها؛ اللهم بعض فروع نبت ضئيل الخُضرة؛ يُطل من أجراف عالية، وليس بها رصيف من بناء الإنسان؛ هو شاطئ رملي ضيق؛ تضرب فيه زوارق بمقدمتها؛ أُنزلت من مراكب شراعية؛ قصدتْ شواطئ الجزيرة المتضرسة للاسترواح.

كان أفراد الطاقم منتشرين في الأرجاء كأنهم في تنافر، وبدا عليهم سأم تلك المساحة المائية وأُفقها؛ اللذان يظهر على أن لا نهاية بعدهما، وفي الوقت الذي أصدر القائد قرارا بتغيير الاتجاه إلى جنوب–شرق؛ إلى (تينيريفي)؛ إحدى جزر (الكناري)، ويليها ساحل هو امتداد لكثيب قاري من رمال موريطانيا؛ تنبّه المكتئبون، والذين يستحضرون بشوق الماضي السعيد، ولم يتجاهل القائد رغبة مأموريه في تغيير درجة السرعة؛ لجعلها في أقصى هذه الأخيرة؛ التي ظهرت آيتُها على وجوههم الخنوعة؛ لأن المسافة إلى جزر الكناري ستطول.

كانت الفرقاطة بشقها للأمواج، وانزلاقها على الماء تُظهر ما لأجله صُمّم غاطسها بدراية مُتخصصين، ويد القائد على المنظار

المكبر؛ يرفعه من حين لآخر إلى عينيه؛ ليتبين ما يعبر المحيط الأطلنتي من السفن العملاقة؛ فيتجه بالفرقاطة في غير تقدم عابرات البحار والمحيطات؛ فالذي برز في منظاره كان بدن مركب ترفيه، وبسارية شراع واحدة مقلوب؛ فأمر بتخفيض السرعة، وإنزال القارب المطاطي إلى البحر؛ ليمتطيه ثلاثة رجال؛ كنت أنا واحدا منهم؛ للوقوف على ما حدث، وللتعرّف على ما آل إليه الرّكّاب.

طُفنا حول المركب؛ شدّ أنظارنا جثة امرأة تطفو بنصفها العلوي مع الساري والشراع؛ حال نسيج هذا الأخير العائمةُ أطرافه دون غرقها. وماء البحر يُزيل دماء يتضرّج فيها شعرها؛ كان رأسها قد شُجّ بأداة. نقلناها إلى الفرقاطة؛ فحصها الطبيب؛ قال بأسف:

– إنها ميتة.

التفت إلي القائد قائلا بحزم:

– أرى أيها الغواص أن تغطس في محيط انقلاب المركب؛ ترى ما إذا كان في المياه غريق آخر، أو من توجب نجدته.

غُصْت؛ فوجدت جثة رجل؛ أمْسكَتْها حبال الشراع؛ أتيت على عُقَدِها قطعا بخنجري، وصعدت بها إلى سطح البحر؛ فنُقلت هي الأخرى إلى السفينة. عُدت وأنظار أصحابي ترقبني. ضربت الماء بالزعنفتين، وغطست، واتجهت إلى نوافذ مقصورة المركب الزجاجية؛ فالتقطت عيناي، وفي عتمة المكان جسد فتاة مُتقوْقع بهيئة جنينية؛ لم أدر أهي حية أم ميتة؟

صعدت وأسرعت في القول:

– فتاة قابعة في مخزن معدات المركب الأمامي.

قال القائد:

– ماذا ترى أن نفعل؟

قلت:

نعيد المركب إلى وضعه ليطفو؛ ثم نسحب الفتاة.

اتجهت إلى المركب المقلوب، وبحثت عن أطراف حبل يتوسط البدن؛ يُتيح جَرّه من الدّرابزين الفولاذي الذي يُتوّج سطحه. أدار البحار مقبض تسريع المحرك الموجّه؛ والدافع للقارب المطاطي ساحبا الحبل؛ فشمخ القارب بساريه وبشراعه؛ تُراقصه أمواج البحر؛ فتقدم القائد وصعد درجات سُلّمه المعدودة، ومساعده والطبيب في أثره.

ظهر بعد ذلك الطبيب وبحار يحملان الفتاة. أمر الطبيب قائلا:

– أسرعوا فإنها غائبة؛ ما تزال بها بقية حياة، وتحتاج إلى عناية.

وصُعِد بها إلى سطح الفرقاطة، ثم مُدِّدت على أريكة الفحص الطبي؛ فشمّر الطبيب ومساعده عن ذراعيهما، ليفعلا ما وسعهما لإنقاذ الفتاة.

عاد القبطان بعد عشرين دقيقة؛ يمسح عرقا تصفّد به جبينه؛ ينفث صدره تنهّدات طويلة، وجلس على كرسي بتراخ، وبجسد أنهكه أثر ما شاهد، وما عثر عليه في داخل المقصورة. قال:

– أياد عبثت بمحتويات صناديق؛ لم تزل شظايا تماثيل فرعونية صغيرة مُبعثرة، وصحون فخارية قديمة، وأوراق البردي مرقومة بالكتابة الهيلوغريفية؛ إنه فعل تهريب للآثار الفرعونية.

قلت:

– هل اقتتلا؛ أعني الرجل والمرأة؛ من أجل الاستحواذ؟

أجاب:

– وكيف نعلم بما جرى؛ سننتظر أن تتعافى الفتاة؛ فهي التي ستنطق بما شاهدته.

قام القائد ونادى في جهاز الاتصال:

– إلى أقرب ميناء من الفرقاطة الفرنسية FF 100؛ رسالة نجدة من الفرقاطة الفرنسية إلى أقرب نقطة؛ رسالة نجدة؛ الإحداثيات: نقطة التقاء خط طول 8° غربا، وخط عرض 34° شمالا.

فانطلق صوت يُؤكّد:

– هنا قاعدة (تينيريفي[13] Ténériffe) البحرية في استماعك.

قال القائد مُلخصا:

– تم العثور على مركب شراعي في خط إبحارنا جنوبا؛ من بين ركابه الثلاثة هالكان، وفتاة ما تزال على قيد الحياة تخضع للعناية المستمرة.

سأل الصوت القادم من بعيد:

– فما توصّلت إليه أيها القائد؟

نطق القائد:

– حسب ما عاينته، فهي حادثة اقتتال ذهب ضحيتها الرجل والمرأة.

صدر الصوت مرة أخرى:

– نشكرك؛ سنكون في الموقع المحدّدة إحداثياته.

راجع القائد فيما كان على البحارة أن يقوموا به؛ وهو الإمساك بالمركب الشراعي بحبل إلى الفرقاطة؛ حتى لا يجرفه التيار بعيدا،

[13] أكبر زجر أرخبيل الكناري في المحيط الأطلنتي واكثرها سكانا؛ هي جزيرة بركانية؛ تابعة لإسبانيا.

وخطا إلى مقصورة القيادة وتفحص الخرائط؛ ليحدد المسافة الفاصلة بيننا وبين سواحل جزيرة تينيريفي؛ فوجدها لا تتعدّى ثلاثمائة كيلومتر، وقام بعملية حساب، مُعتبرا أقصى سرعة مركب إسعاف بمحركات دفع قوية؛ فكان خارج الضرب والقسمة يوم ونصف، وحتى يحين وقت وصول المحققين، وأطباء التشريح والمسعفين؛ اتجه إلى غرفة إسعاف الفتاة؛ فبعد أربع ساعات فتحت عينيها، ونظرت إلى ما يحيط بها بآضطراب؛ كانت في عُمْر أربعة عشر عاما. طمأنها الطبيب، ولما أدركت أنها أُنقذت تفوهت مُردّدة نفس الكلام:

– لا أذكر غير طائرة تحط على الماء بدعامتين انسيابيتين؛ ينزل منها ثلاثة رجال ملثمون وقت غروب الشمس، ويهجمون على أبي الذي لم يستسلم، فأراد مقاومتهم بأن استل مسدسا وحاول إطلاق النار؛ لكنه سقط؛ فقد رأيت بأيدي أحدهم مسدسا؛ دوت رصاصته. لم تستسلم أمي وتلقفت مسدس أبي وحاولت؛ لكن أحدهم انهال على رأسها ضربا بأداة حديدية. كنت أنا في الداخل أشاهد برُعب ما يجري؛ فتراجعت، ولُذت بمستودع المعدات، وأوصدت علي الباب؛ كان ما يزال شراع المركب مشدّودا بالحبال؛ فعصفت به الريح وانقلب.

سألها القائد:

– ماذا كان يريد هؤلاء الرجال؟

أجابت بعينين متسائلتين:

– لا أعلم.

سألها القائد مرة ثانية:

- في المركب شِحنة من تحف فرعونية أثرية؟

أجابت بجهل:

- لم أكن أعلم بهذا؛ ما أعرفه عن أبي أنه كان شغوفا بالقديم.

ربَت القائد بيد أبوية على كتفها وقال:

- أعزيك يا ابنتي وأفراد طاقمي في وفاة والديك.

وقد تلقت الفتاة النبأ؛ فأجهشت في البكاء.

دعا القائد جميع أفراد الطاقم للاجتماع؛ فجلسوا على كراسيهم بوجوم، وأنظارهم تنصب على القائد؛ ينتظرون ما سيتكلم به؛ نظر طويلا في الخشب المبسوط أمامه؛ قال:

- في آفاق البحر كثيرا ما يقع ما لا يُتصور؛ إن ما حدث هو فصل من رواية طويلة؛ وإلا لماذا تعقب أولائك الرجال أفراد عائلة تُبحر بمركب شراعي؛ هل بدافع متعة السفر في البحر؛ أم بسبب آخر لم نتوصل إليه بعد؟ ما أود أن أُبلغه إليكم؛ هو أننا لن نغادر حتى يصل الموكّلون بالمهمة؛ لأننا غدونا شهودا لما عايناه؛ ومن واجبنا أن نؤدي هذه الشهادة، وأن نمد يد المساعدة للكشف عن حقيقة ما حصل؛ فاصبروا بعض الوقت؛ لقد قطعنا ضِعْفي المسافة؛ وسنكون بعد أربعة أيام في أرض إفريقيا الغربية.

وافق الجميع، وأذعن للأمر، وأبدى استعداده للمشاركة.

كان من طلائع فريق (جزيرة تينيريفي) طائرة شراعية حلقت في أجواء المكان بدورتين؛ لعلها أخذت صورا، وغابت في غمام السماء وسحُبِه؛ إلى الجنوب، وكانت قد أرسلت تحية في جهاز اتصال الفرقاطة؛ فرد القائد بما يُفيد استقبالها، ثم بعد ساعة سُمع هدير سفينة، وظهرت مقدمتُها الماخرة للأمواج، وشوهد تباطؤُها،

وإنزال قوارب مطاطية؛ في تقدم هذه الأخيرة نهاية زمن طال الانتظار فيه، وبداية مرحلة أخرى حتما ستمر وسيُكشف خلالها عن ما حدث.

كُوِّمت الجثتان في كيسين، وأُودعتا في مُستودع حافظ بالسفينة، وفي وقت نقلهما كانت الفتاة تُشيّعهما بعينين لا يطرفان، وبصمت رهيب؛ ساكنة كانت؛ لم تخط قيد أُنملة، والشحوب الجامد يكسو صفحة وجهها. لم تنبس ببنت شفة، وظلت ترنو في الفراغ؛ فلم يجد القائد بدا من أن يتقدم ويحيط ذراعيها بيده؛ فأسندت هي رأسها على صدره الواسع وبكت، ثم شد أحد البحارة يدها، وساعدها على النزول إلى القارب؛ الذي تحرك وتزحزح على الماء وأدبر؛ فرأينا جميعا ما غدونا به آسفين؛ فقد التفتت الفتاة إلينا، ولوحت بيدها الضئيلة؛ ناظرة إلى القائد وعلى شفتيها آيات امتنان، ثم سلمت قدميها إلى سلم السفينة؛ هذه الأخيرة التي غدت موكب جنازة؛ تحمل الموتى إلى مثواهم الأخير؛ فاختفت حاملة معها همنا بالواقعة، وسؤالا محزنا لا أحسب؛ إلا أنه ظل يتردد في أذهاننا جميعا: هل للفتاة أقارب وأصدقاء مخلصون؛ مجتمع تجد في قلوب بعض أعضائه عزاء؟

كان مركب آخر قد رافق السفينة الجنائزية في قُدومها، وغادرته ثلة من الرجال؛ لم يكونوا غير المحققين والصحفيين ومصوري مخلفات الحادث، والعارفين بزوايا توجيه عدسات الالتقاط، ثم بعد المعاينة والتوثيق بالصورة وتقييد المعلومات؛ قُطِر المركب الشراعي بمحتوياته دون أن تغير االأيد من أمكنة وجودها على سطحه؛ إلى جزيرة (تينيريفي).

كان القائد قد أجاب على بعض الأسئلة؛ طرحها أحد المحققين الذين أفنوا سنوات نشاطهم المهني في استجلاء الأمور؛ بصياغة أسئلة؛ منطلقها احتمال وقوع الفعل، وبالتالي وجود الفاعل، وودّع القائد بابتسامة، ووعد بما يقتضيه العُرف المهني المقنن، وهو أن يبعث إليه بتفاصيل حكاية من مات من ركاب القارب الشراعي، ومن ظل من الأحياء؛ بعد التوصل إلى معرفة حقيقة ما جرى، بعد هذا أمر القائد بالإبحار؛ في وقت كانت الشمس قد غطست في أُفق البحر؛ الذي يلي ظهورنا؛ فلم نلتفت إليه، وشخص تفكيرنا إلى بحار الجنوب الدافئة.

اجتمع أفراد من جماعتنا في ليلة مقمرة؛ في ركن من السفينة الحربية؛ تحتل أحدَ جنباته رفوف صُفّت عليها كتب ومجلات وسجلات، وقد أوحت أَرْيَحِية المكان لقارئ خرائط الطقس بفكرة؛ عندما أطلق العنان للسانه بها؛ انفرجت بواطن الحاضرين وعلت وجوههم فرحة؛ لأن ما اقترح عليهم هو استراحة بعد السفر الطويل في البحر، وتركُ صورة الجثتين العائمتين تذهب في غياهب النسيان، وهي الإلقاء بالمرساة في إحدى جزر الكناري الصغيرة؛ لمدة يومين؛ للتمشي على أرض بصخر بركاني، وإقامة وليمة عشاء يُشوى فيها السمك المفلطح والمكتنز؛ بعد العودة من أعماق البحر؛ من مطاردة اصطيادية بنبال بنادق تحت الماء؛ فوُجّه ملتمس إلى القائد الذي سعد بالفكرة؛ فاستجاب.

كان من عيّنه القائد ليقود فريق اصطياد سمك الأعماق هو أنا؛ لما يقتضيه الحال؛ فجِئ بمعدات الغوص، ولم تمتد الأياد إليها، وخاطبت الجمع بأن يقوم بما أُمنهجُه في التسلح للخوض في البحر؛

حتى لا يكون في نسيانه ما هو قاتل؛ فأشرت إليهم بالتراجع إلى مؤخرة السفينة؛ قائلا:

– أنا الآن قائدكم، ويجب أن تأتمروا بما أراه، ولا حق لأحد منكم أن يتمرّد أو يُعارض؛ وإلا سيمثُل أمام مجلس المؤدبين.

فضحكوا، وقالوا جميعا:

– ليحيا قائدنا الغواص.

قلت بنبرة جادة:

– أو تدرون ما سيشغل أيديكم وأنتم في مياه الأعماق؟

قالوا باستيعاب متأخر:

– بنادق تحت الماء.

قلت موزعا نظراتي الجاحظة بينهم:

– ثم ماذا؟

قالوا وقد وعوا بما أعني:

– نبال.

قاطعتهم مضيفا بجدية وبحدة:

– نبال ناشبة؛ حادة الرؤوس؛ لا بد أن تأخذوا حِذركم؛ فقد يفقد أحدكم توازنه في انسيابه في الماء؛ فينفلت السهم في غير اتجاهه فيصيب أحدكم به.

بث كلامي روعا في نفوسهم، وكاد البعض منهم أن ينسحب؛ لولا أني طمأنت الجميع بأن رحلة الصيد ستمر بدون مخاطر، ثم شرعوا باحتذائي في ارتداء مُستلزمات الغوص. كنت أولهم في النزول إلى الماء؛ فتوالوا بعدي بتعاقب كأطفال مدارس أغرار.

كان ما اصطدناه وفيرا؛ فدلفوا إلى مطبخ السفينة الواحد تلو الآخر؛ حاملا سمكته إلى حوض الماء، ليزيل حراشيفها الصلبة، ويدعها تُشوى على مِجْمر كهربائي.

في ساعة مبكرة؛ من صباح أشرقت في أفقه الذي بعده ساحل موريطانيا شمس ربيعية؛ كانت الفرقاطة تمخر عباب البحر، ولم يكن من اليقظين في هذا الوقت، ومن يرسمون المسار البحري في مقصورة القيادة غير القائد والبحار الممسك بعجلة الدفة، وأغلب أفراد الطاقم نيام، ولن يظلوا يغُطون؛ فقد مالت الفرقاطة فجأة بزاوية غير معتادة. كنت الأول من غادر الأريكة المعلقة، ونظرت من خلال النافذة الزجاجية المستديرة؛ فرأيت جبالا من الأمواج ترفع مؤخرة السفينة وتهوي بمقدمتها، والقائد يمسك بيد بمقبض حديدي وبيده الأخرى منظاره المكبر، وينظر بتعقل وبهدوء إلى هيجان البحر؛ الذي اعتاد الإبحار فيه طيلة مدة قد يصل عدد أعوامها الأربعين.

استندت إلى جدار الهيكل الحديدي خلف القائد؛ أسرح بعيني بعيدا في السماء التي امتلأت بغيوم كثيفة سوداء؛ سرعان ما بدأت تُرسل مطرا مِدرارا؛ تضرب بقطراتها القوية زجاج المقصورة الأمامي، وتكاد تحجب الرُّؤية. ما ظهر في طريقنا، وبين قيعان الأمواج قمة سار خشبي، وطرف شراع من نسيج كتاني، وحبال مفتولة من القنّب؛ فانخلع القائد، واكفهر وجهه، وصاح بغضب:

– يا للحماقة ويا للجهل؛ هل لهذا المركب الخشبي من المؤهلات؛ ما يجعله يُبحر في هذا الطقس الرديء؟

قال هذا، وأصدر أمره إلى البحّارة بأن يكونوا على أُهبة استعداد لإنقاذ القارب؛ الذي ستبتلعه الأمواج لا محالة.

هل ستُسعِفهم الأمواج المزمجرة؟

ومن سيجرُؤ من البحارة، فيمتطي القارب المطاطي، ويتوجه إلى القارب الخشبي؛ الذي يطفو كريشة طائر؛ لإنقاذ من يركبه؟

فنادى القائد في البحار؛ بأن يهم فيُدير الدفة لتدنو الفرقاطة؛ فشاهد من قدم من الآخرين كذلك ما أرعبهم: رجل مُسن؛ ذو سحنة سمراء، ولحية شيباء؛ برأس أجرد؛ يرتدي صدارا أبيض من ثوب خشن؛ به ثُلم ومُرتّق؛ يقاوم بصدر إفريقي؛ مندفع بقوة اندفاع الأمواج؛ فيُمسك بحبل الشراع، ويُوثره، أو يُرخيه، ويُدير الدفّة الموجّهة، ويُراوغ تقدم قمم الأمواج، ويُخاتل مهاويها العميقة.

امتدت يد القائد إلى قابس الصوت، وأفرغ فيه ما صدر من مكبر الصوت:

– إن الفرقاطة الفرنسية FF 100؛ على استعداد لإنقاذكم. لا تتكبدوا مشقة مقاومة الأمواج.

وانتظر الجميع طلب النجدة؛ فلم يروا في الصياد المسن غير الإعراض عما وُجّه إليه، ومضى بإصرار وتعنّت سِنون الشيخوخة، في ملاينة البحر العاصف، ومداورته، فنظرنا بإعجاب إلى الكيفية التي يقود بها مركبه؛ كانت تدل على خبرة طويلة، ويظهر جليّاً أنه اعتاد نزال البحر؛ في نوبات غضبه، وغير ما مرة.

ارتفع النداء مرة أخرى من مكبر الصوت:

رجاء؛ رجاء؛ إليك طوق النجاة؛ ولا خوف على قاربك؛ سنرفعه من البحر بالرافعة؛ رجاء.

شاهدنا وجه الصياد من بين كتفيه العريضين؛ ينظر بابتسامة اطمئنان، وتهكم من حياة مديدة؛ لم أر إلا أنه خاض في أعتى مما هو فيه الآن؛ فرفع يديه وأبدى استعداده.

فرمى أحد البحارة بطوق النجاة عاليا؛ فحلق، وتلقفه الصياد بحركة ذات دُربة؛ عجبنا لها أيضا، وألقى بجسده في زبد البحر، ولان للحبل؛ الذي سحبه من بين براثن الموج الكاسح؛ في وقت كنت أنا باللباس العازل لحرارة الجسم؛ قد سبحت، ويدي ماسكة بطرف حبل؛ عقدتُه بماسكة الحبال الخشبية المثبتة بالحاشية؛ فسُحب القارب هو الآخر، وتدلى من الحبل الذي كان يُلَفّ على بكرة الرافعة؛ فأمسك به البحارة، ومددوه على سطح مؤخرة الفرقاطة.

خطا الجميع نحو الصياد المسن، وتحلقوا حول؛ استقبلهم بابتسامة؛ تُضيئها أسنان نضيدة بيضاء؛ تشعّ من سمرة وجهه؛ فضحك الجميع، وراحوا يتأملونه؛ هذا الإنسان القادم من أزمنة مراكب المحيط الهندي؛ ذوات الأشرعة المثلثة الشكل، ومن بين طيات كتب الأراجيز البحرية، وأحد أبطال حكايات ألف ليلة وليلة.

قال له طبيب الفرقاطة:

- كدت أن تُهلك.

خاطبته بالعربية؛ مترجما ما سمع.

نظر إلى الطبيب مليا؛ ثم رفع سبابته التشهدية إلى أعلى، ووجَّه نظره إلى السماء؛ فكان يعني أنها قدرة الخالق.

نظر القائد إلى الرجل بعطف، وكلاهما شيخان. قال له بتنبيه رحيم:

– وإن خبرت البحر؛ إلا أن إبحارك بعيدٌ عن الشاطيء هذه المرة، ولا أرى سوى أن الأمواج دفعتك، وحالت بينك وبين العودة سالما؛ كان خطأ أليس كذلك؟

أجاب الرجل:

– بلى؛ كنت ساهيا، ولم أبال بغير الشباك، وما تصيده هذه الأخيرة هو رزق يومي.

سأله القائد مرة أخرى:

– منذ متى وأنت في عُرض البحر؟

استمد الصياد جوابه من ذاكرته الواهية؛ فقال:

– منذ فجر يوم أمس؛ ترى في تجويف مؤخرة القارب مجمرا طينيا، وآنية من الألمنيوم لطبخ الأكل، وملعقة، وخضرا، وبقولا، وتوابلا، وبقايا خبز.

وكأن كلامه الأخير نبه المتحلقين؛ فقصدوا القارب ليشاهدوا شكله، ومادة صنعه، وتصميمه، ومعدات الإبحار به؛ كانت قطع بدنه الخشبية محكمة بمسامير مدفونة؛ مما أكسبه هذا صلابة، وبين بعض العارضات خيوط القنب مدقوقة؛ تسُد منافذ الماء، وفي دفة التوجيه ومقبضها قوة، والحبال مفتولة من ألياف القنب، والبكرات منحوتة من الخشب الصلب، والشراع مثلث الشكل، منسوج على نَول تقليدي؛ من خيوط قطنية؛ هو نسخة مصغرة من مراكب المحيط الهندي؛ التي قادها فيما مضى من العصور، وما يزال يقودها

ربابنة جنوب شبه الجزيرة العربية؛ الذين ورثوا معرفتهم بالملاحة بذلك المحيط، مما سلف من الأجداد.

أوصى القائد خيرا بالصياد، ومضى إلى مقصورة القيادة؛ ليدرس خطوط تساوي الأعماق في مداخل الموانيء.

بعد نصف يوم سكن البحر، وانجلت الغيوم الرمادية؛ فصفا وجه السماء، ورأى أفراد الطاقم شاطئ غرب إفريقيا؛ الذي يكاد يخلو من الحياة، ويمتد إلى ما وراء نهر السينغال؛ هو امتداد للصحراء الكبرى الجرداء، وبكثبانها الرملية المتحركة.

رفض البحار الإفريقي أن يُنزل مركبُه على مياه أحواض الموانئ، وفضل الإبحار به إلى قرية الصيادين؛ فحقق القبطان رغبته.

أُبطِأ من سرعة الفرقاطة، واجْتِيز بها رأس رصيف تكسير الأمواج، ورست بجانبها الأيمن على رصيف أسمنتي طويل؛ يقف عليه جماعة من ضباط بحرية موريطانيا العسكرية، وبحارتها؛ لتتم طقوس تسليم الفرقاطة، فتكون مهمة أفراد طاقمها الفرنسي قد انتهت؛ فأُريحوا، ثم نقلتنا سيارة بمحرك دفع رباعي؛ إلى أفخم فندق بالعاصمة نواكشوط.

بعد ذلك خرجنا إلى شوارع المدينة؛ لنُتحِف عيوننا بما يسود على الأرض؛ غير مكافحة تقلبات سطح البحر، واقتحام الأعماق؛ من بنايات؛ الغالب منها البسيط التصميم، ومن جموع ساكنة؛ الغالب منها ذوات السحنة السوداء، والقليل منها سمراء؛ لها قسمات خِلْقية جميلة، ومن دكاكين تعرض من عطاء تلك الأرض المتميز عن غيره. فاشتهت نفوسنا أكلا، ولم نردّ على المانح العَطاء؛ فالتهمناه؛ فكان ذلك الأكل مريئاً؛ لأنه غير ما عزفنا عنه؛ مما كان

محفوظا في رذاذ الثلج؛ إذ نحن في المحيط، ومشينا حفاة في عصر اليوم الرابع من إقامتنا على الرمل؛ الذي ألهبته كثل الصحراء الهوائية الساخنة؛ أذهبت عن أقدامنا برودة صفائح الفرقاطة الحديدية، ثم عُدنا لنُعلم بأن القائد سيشرح تفاصيل عمل الفرقاطة في إحدى قاعات الفندق؛ مُلقيا كل ذلك على مسامع من سيحل من أعضاء البحرية الموريطانية؛ محل الفرنسيين في الإبحار بالسفينة الحربية؛ لخفر السواحل، وتدريب المبتدئين، وهو في آخر الدقائق يرد على بعض الأسئلة؛ مد إليه مساعده بظرف؛ فضه ليسحب منه رسالة؛ فقرأ بأن السفير الفرنسي يدعوه إلى لقاء بمقر السفارة الرئيس؛ فمُهّدت له الطريق إلى سيارة كانت تقف بباب الفندق؛ احتواه هيكلها، واحتضنته أبهاؤها الكلاسيكية. اختفت في منعطف أحد الشوارع، وبعد ساعة عاد متأبطا ملف أوراق، ودعانا جميعا نحن أفراد الطاقم للاجتماع؛ لماذا؟

قال بهدوء:

– لِأقرأ عليكم ما كتبه أحد أبرع المدبجين؛ عن حادثة أصحاب القارب الشراعي؛ بعث به ذلك المحقق المُغرِض في الأسئلة الماحقة؛ فكانت آذاننا صاغية وبلهفة؛ فقرأ ما بيده؛ مما سُوّد على الورق:

«كان (أنطونيو) في الخامسة عشرة من عمره؛ عندما مات أبوه الذي كان يعمل بميناء جزيرة (مالطا)؛ يقضي يومه بين الرافعات العملاقة؛ ينقل على ظهره ما أفرغته سفن الشحن القادمة من القارات الخمس؛ إلى مخازن الميناء، أو من هذه إلى أجواف المراكب المغادرة. أما الابن فكان يقضي أيام العطلة الصيفية على الشاطيء؛ ليسبح، أو ليساعد أحد أصحاب القوارب في التوغل بالسياح

الأجانب في البحر، وكان مما يُثير إعجابه هو تلك السفن الشراعية التي تتخذ من الجزيرة مقاما سياحيا، أو نقطة عبور إلى ضفة البحر الأبيض المتوسط الجنوبية، وإلى قناة السويس، ثم إلى المحيط الهندي، ويحلم باكتساب مركب شراعي في يوم من الأيام؛ ليُبحر به إلى بحار جزر (القُمر) أو جزر (سيشيل)؛ فهو إذن ما يزال طفلا، وكان يقرأ قصصا، وروايات تتخذ من البحار أفضية وأمكنة لأحداثها، ونفحه ماضي الجزيرة؛ كانت أرضها مقدم العديد من الأجناس، وشعوب البحر، وحضارات الشرق؛ فكانت تُغريه تركات هذه الأخيرة؛ مما هو قائم على شكل آثار، ومما هو محفوظ ومعروض في المتاحف؛ من تحف فنية وتاريخية، وموروثِها السردي؛ الشفوي منه والمكتوب؛ كحكايات ألف ليلة وليلة، ومغامرات السندباد البحري، وكتب الرحالة العرب، وربابنة سفن الدّاو[14]؛ فكان ذلك الذي يراوده هو حلم طيلة الأوقات؛ يدفعه إلى الانخراط في ناد للقوارب الشراعية؛ فيتدرب على تجهيز المركب بمعدات الإبحار، ويحفظ اتجاهات الرياح، وتوجيه الشراع والدفة وعُقد الحبال، ووضعيات القارب في مهب الريح، وعواصف البحر الهوجاء، وقد استوعب هذا جميعه، وأصبح من البحارة البارعين.

لما بلغ من العمر اثني وعشرين عاما، وفي يوم كان يجلس في ساعاته الأولى على رأس ماسكة حبال السفن الحديدية؛ ينظر إلى السفن العابرة والقادمة إلى أرصفة مالطا، والمغادرة لها، ولم يكن قد وجد عملا؛ طرق أُذنيه صوت محرك، ولجزر البحر في صيف ذلك

[14] سفينة ذات اشرعة مثلثة؛ استخدمت من طرف عرب جنوب شبه الجزيرة العربية؛ للإبحار في المحيط الهندي.

العام، ولعلو حائط الرصيف؛ انحنى ونظر على طول هذا الأخير ليرى قاربا يدنو؛ إنه أحد أصدقاء والده القدامى؛ يقول له بأن ينزل لأن صاحب سفينة يريده. أسلم قدميه لدرجات آخرها في عمق الماء، وقفز إلى سطح القارب الخشبي، وانطلق صاحبه إلى السفينة؛ قد كان مالكها قد عين له عملا. كان طريق السفينة التجارية هذه هي أمكنة أحلامه.

كان حتى لحظات تسكعه على أرصفة الميناء يفكر في إنجاز مشروع؛ إذا ما وطئت قدماه شرق إفريقيا وحوض النيل؛ هو الاتجار فيما يغدو به ثرياً؛ ألم يُذكي ما قرأ شهوته إلى امتلاك ما تزخر به تلك المناطق من عبيد وعاج وذهب وأحجار كريمة من زمرد وسفير، وما يمكن أن تصل إليه يداه؛ إذا ما سافر صاعدا مياه نهر النيل؛ راكبا قواربها ذات الأشرعة المثلثة الشكل؛ إلى آثار مصر الفرعونية، فيجني من بيعها مالا كثيرا؛ إذن فهو لن يسافر إلى مياه غرب المحيط الهندي؛ إلا لهذا الغرض الذي لن يتحقق بين عشية وضحاها.

سيغادر (مالطا)، وهي بحق مالطاء؛ كوجه رجل أملط؛ لا تُعطي مما يثرى به ساكنها؛ إلى حين من زمن لا يرى إلا أنه سيمتد به طويلا.

بعد رحْلَتَي عمل على ظهر تلك السفينة؛ تعرف خلالها على بيئة تلك المناطق الطبيعية، وعلى أخلاطها البشرية، وفي ليل اليوم الثالث من الرسو في رصيف ميناء (بومباسا؛ Mombasa) ب(كينيا)؛ اختفى أنطونيو، ولم يُعْثر عليه، ولا وجود لأثره في محيط الميناء. أمد المخبرون عمّه -الذي ما يزال على قيد الحياة- بخبر

اختفائه، وهو الذي انتظر عودته المعتادة من بحار إفريقيا الشرقية؛ كان قد سأل عنه بحّارة السفينة التجارية؛ فأنبأوه بذلك.

ما كان من أمره أنه قَبِل أن يشتغل وسيطاً بين المهربين الأهالي، وبين الأوروبيين؛ الذين يُتاجرون في الماس، وفي الأحجار الكريمة، وفي الذهب، وفي الموجودات الفرعونية؛ فالتفع بما يغطي الرأس والجسد، وارتدى بما يبدو به من أهالي السودان أو مصر، وقصد موضع التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق؛ حيث مدينة (الخرطوم)، ومن هناك انضم مسافرا إلى قوافل الإبل، أو إلى ركب من حمير السودان؛ ليختلي بأفراد لا يُبدون من وجوههم غير عيون رامقة؛ فيُنْقدهم مقابل بضائع؛ من تحف أثرية من العصر الفرعوني القديم؛ فيعنّ له أن ينوع من مواد تهريبه؛ فيندس في إحدى صباحات إفريقيا؛ يطفح جوها بندى الغابة الاستوائية؛ منتعشا بهذا؛ بين ذوي الخِلقة الإفريقية السوداء؛ في إحدى العربات المتجهة قاطرتها إلى (الموزمبيق)؛ ليهرب ماس جنوب إفريقيا.

هل يظل يتكبد مشقة السفر في الطرق الطويلة والوعرة؛ بين راكب حين يعثر على مركبة؛ أو ممتط حين يجد حصانا، أو بغلا، أو حمارا؛ أو يسير وراء الحادي على خُطى الإبل؛ وهو غير أجير؛ لا يكسب غير ما يدفع إليه أولئك التجار الجشعين؟ فاستقل وكد وبرع؛ فنجح؛ فأصبح مُنافسا مهددا شركاءه الأولين؛ فجمع هؤلاء الأخيرين لقاءٌ، وتداولوا أمرهم معه فيما بينهم؛ فقرروا أن يُخَيّر بين أن يعود إلى جزيرته سالما؛ كما قدم أول الأمر عاملا بإحدى السفن، أو يُقتل.

رفض أنطونيو واختفى مرة أخرى؛ ليظهر بعد ذلك في الحي العتيق بمدينة (موقاديشيو)؛ لكن لم يكن يعيش وحيدا؛ كانت برفقته امرأة وفتاة؛ كانت تلك زوجته وهذه ابنته؛ فقد تزوج من مراسلة صحفية؛ قدمت إلى شرق إفريقيا للمغامرة هي أيضا، والبحث عن مادة خام مثيرة لكتاب يرفعها إلى مقام الكتاب المشهورين؛ كانت تتنقل في البلدان الإفريقية؛ موفدة من إحدى الصحف الغربية؛ لتغطية الحرب الدائرة بين شمال السودان وجنوبه، والحرب العنصرية بجنوب إفريقيا، ومقاومي إريتيريا، ومجاعات إثيوبيا والصومال؛ فعندما سُئل جيرانه من العرب؛ أجابوا بأنهم لا يعرفونه إلا باسم عربي هو (حسن).

درَّ عليه ذكاؤُه، وبحثُه الذي لا يكل منه عن النفيس من المعدن، وغيره مما يبهر أثرياء حواضر الغرب الأوروبي وشمال القارة الأمريكية، ويثير إعجابهم؛ أرباحاً تكاد أن تُغنيه؛ بل دنا من عتبة الغنى، وليحافظ على ثرائه فكر في الرحيل وإلى الأبد؛ عن المنطقة التي قدم إليها معدما، وصارت حياته مهددة؛ فبقدر ما تعطي؛ فهي تسلبه راحته؛ فقرر وخطط.

اشترى مركبا شراعيا بأحدث تصميم؛ هيكله مصنوع من الألمنيوم، وبحجرات ومقصورات وأبهاء، وبآخر ما تُجهّز به مراكب الترفيه؛ من وسائل الإبحار، والاتصال، والتقاط أبعاد السواحل، ورَسْم المسارات الملاحية بالأقمار الاصطناعية، وبأدوات قيادة أوتوماتيكية. تُؤهّله طوافاته الجانبية الفارغة؛ بأن يُبحر في أية حالة طقس، وفي أية حالة يكون فيها البحر؛ فلا خوفا عليه وعلى زوجته وابنته؛ إذا ما عادوا إلى مالطا عن طريق البحر، وهو قد خزّن كمية

من الماس في تجويف الجناح المركب في أسفل القارب؛ والقابل للرفع والإرخاء؛ هو ثُقّالة للتوازن والمحافظة على استقامة سير السفينة، وفي تجاويف أخرى، وغلّق فتحاتها؛ كأنها خزائن أسطورية؛ عليها حراس مردة؛ فأية بحار سيخوض في مياهها؛ دون أن تتعقبه سفن خفر السواحل، وتُفتش أرجاء مركبه، وتكشف الأجهزة عما خُبّأ وما أُودع؟ فلا (باب المندب) ولا (البحر الأحمر) ولا (قناة السويس) ولا البحر الأبيض المتوسط؛ بمجالات إبحار آمنة.

أَوَ كان يدري أن عيون جواسيس تُراقبه، وتتعقّبه في كل خُطوة تنقله فيها قدماه؟ لم يُخيّر؛ فالامتداد الواسع للقارة الإفريقية إلى الجنوب، وإلى الغرب من فعل الأزمنة الجيولوجية؛ فلم يجد غير الإبحار بموازاة مع الساحل؛ في أطول مسافة بحرية يسافر عبرها.

في فجر أحد الأيام من شهر مارس؛ كان مركبه الشراعي يمهد طريق إبحاره بجلده للأمواج، وبالاختراق الزاحف لهذه الأخيرة؛ كأن لا عائقا في خط إبحاره، وهل باستطاعة أحد مهما حاز من وسيلة يحلق بها، أو أُخرى يُسرع بها في الخِضمّ أن يقتفي أثره؟ كان ممن أنذروه قد سلكوا طريقا بحريا آخر؛ فقد أبحروا في البحر الأبيض المتوسط، وعبروا زقاق جبل طارق؛ إلى مياه جزيرة (بورتو سانتو)؛ وقد اكتسبوا من الوسائل ما يؤهلهم؛ وذلك بشحنهم لطائرة شراعية؛ بدعامات انسيابية على سطح البحر، ومن على مياه تلك الجزيرة أقلعوا بها ليقطعوا الطريق على أنطونيو؛ فيقتلوه وزوجتَه، ويبحثوا في دواخل المركب عن ما يحتمل أن يُخبّأ فيها؛ فلم يصلوا إلى أي من ذلك، وكانوا قد رصدوا من بعيد وأثناء التحليق الفرقاطة

الفرنسية FF 100؛ فأقلعوا ولم يُسعفهم الظرف في النبش حتى في ألمنيوم المركب.

تابعت الابنة (جِسيكا) رحلة السفر إلى الموطن الذي تنحدر منه أصولها؛ لتلتحق بعشيرتها؛ بجدتها التي كانت ما تزال على قيد الحياة وبعم والدها؛ وقد ورثت نصيبا من رصيد مالي، وحفنة من الماس؛ أما المخلفات الفرعونية فإنها أُعيدت إلى مصر؛ بلاد مهدها؛ لتُحفظ في متاحفها.

قد يسأل من تأمل هذه الواقعة؛ كيف اهتدى المحققون إلى الماس المخبأ في جناح المركب؟ فقد عُرِّضت ألبسة أنطونيو لأجهزة الكشف؛ فظهرت بين طيات أثوابه ورقة ملفوفة؛ كان قد خط أنطونيو عليها تصميم القارب؛ وبسهم يشير إلى مخبأ الماس. هل كان يتكهّن بأنه سيموت؛ فيكتشف ذووه ما ترك؟».

ظل القبطان ينظر إلى الورق؛ ويُقلّبه بين يديه؛ يستعيد بتفكر ما تلاه، واسترخى الباقون بهدوء؛ فقد أنهكتهم قصة حياة أنطونيو. اختلفت آراؤهم بين وجود دافع الحاجة، وبين اندفاع مستميت وراء المال؛ فكانت النتيجة صدام مع من هو أعتى من أنطونيو؛ فكان فيه موته وموت زوجته؛ هل كانت هي على علم بما يُتاجر به زوجها؟ قد تكون حافظة للسر إلى حين.

قال القائد:

– هذه إفريقيا؛ أرض الجنوب؛ أرض مصدر الثراء الغامض؛ ستظل لأهلها، وإن كانت تُغري الغريب؛ بما يحتمل أنها ما تزال تحتفظ به من الماس والذهب والعاج؛ لنُغادرها ونعود إلى الشمال؛ بعد أن أدّينا ما تُوجبه الخدمة.

وجدتني في مطار نواكشوط وحيدا أحمل حقائبي؛ أسير في رصيف، وفي آخر يسير عبره القائد ومرافقوه من الطاقم السابق؛ يلوّحون لي بأيديهم مودّعين؛ لتنقلهم طائرة تابعة للشركة الفرنسية، وأنا سأعود إلى مدينتي، وإلى بيتي، وإلى عملي بالقاعدة البحرية؛ تنقلني طائرة تابعة للشركة المغربية.

حُجرة الضغط الفولاذية

هل يفهم القارئ مضمون العنوان، وفي أول قراءة له؛ مجردا مما سيُسرد في هذه الحكاية؟ إنه ليس مُتاحاً للتعرف على هذه الحجرة، إلاّ لمن يبحث، ويقوده خياله هنالك بعيدا في آفاق الأرض؛ فيسأل كيف هي ولأي غرض هذه الحجرة؟

يحضرني سؤال كثيرا ما ردده الباحثون في تاريخ الإنسان؛ هل نحن شعب البحر؟ وإلا لماذا لا نعلم بوجود حجرة ضغط اختبارية، وكيف تُشغّل، ولأي هدف؟ وأكثر من هذا؛ ما هو الأثر الذي تتركه في نفسية من امتُحِن في ولوج هذا الكهف الفولاذي، فيتبين من التقارير المحررة بذلك؛ بأنه غير مؤهل ليغوص في أعماق البحر.

فهذا سرد لعلاقتي بهذا المأوى الرهيب، ولما تركته من آثار في نفسية أحد الممتحنين، وكيف أُحبط، وظل مستصغرا في البال طيلة حياته، وملأت أوقاته هذرا بها، كلما جمعه لقاء بزملائه، أو أصدقائه أو جيرانه.

وُكِّلْت بالإشراف على حجرة الضغط الاختبارية؛ التي كانت الأولى والوحيدة في القارة الإفريقية؛ والقيام على مراحل الامتحان بها، وصيانتها، وضبط آلاتها، وأجهزة قياس الضغط، وهواء جوفها؛ لا أذكر متى حلّت بإحدى حُجرات الفحص بالقاعدة البحرية؛ أما التي أُختُبرتْ فيها طاقتي على تحمل الغطس في أعماق البحار والمحيطات؛ فهي مركونة فيما وراء ضفة البحر الأبيض المتوسط الشمالية؛ في إحدى قاعات المدرسة البحرية الوطنية بمدينة (بريست) الفرنسية؛ كان ذلك في سبعينيات القرن الماضي.

أجد بعد توظيف عدد من الشباب؛ من طرف البحرية المغربية؛ طابورا من بين هؤلاء في الساعات الأولى؛ يحاذي جدار القاعة، وما إن يُسمع وقعُ حذائي ذو القاع العسكري؛ حتى ينتصب المرشحون لخوض امتحان ارتفاع الضغط، ويؤدون التحية. أدخل، وأجلس إلى مكتبي، وعلى الباب البحار المساعد؛ ينادي على أوّلِهم، ثم على من يليه ليستعّد.

كان علي أولا أن أُرحّب بالبحار المرشح، وأدعوه إلى الجلوس؛ عِلما مني أن الجميع يتقدمون باضطراب، وتوتر وخوف من أن لا يُفلحون؛ فيكونون من المرفوضين، وأن أرفع عنهم هذا، وأُشجّعهم، وأطمئنهم بأن الأمر بسيط، ويُوجز في معرفة تحملهم ضغطا اصطناعيا، يساوي ضغط مياه الأعماق الطبيعي؛ وهم يستنشقون الأكسجين الخالص.

جاء دور من رأيت حماسة تشع من عينيه، ولاحظت تأهب ملامح وجهه، وارتعادا في فرائصه، وترددا في نطقه؛ يؤخر ويقدم في كلامه، ويختلس نظرة بعد أُخرى إلى ذلك الكائن الحديدي الرابض هناك؛ لا يدري كيف سيُصْبح طعمة سائغة له؛ كيف سيلج إلى داخل جوفه، وهل يجد من يعطف عليه، وينظر إلى حاله البائسة؛ فيقدم إليه يد المساعدة، ويُجاوز به العتبة الفولاذية.

ظللت زمنا أنظر إليه صامتا وهادئا، وحاولت ألا يتصلب غشاء وجهي؛ فيُريعه ذلك، ويزيد من توتره؛ حتى استكان، وارتخت عضلات وجهه، واستنشق هواء الغرفة المحيط به وزفره. ابتسمت في وجهه؛ فابتسم. مددت يدي محاولا شحن يديه المرتعدتين والباردتين؛ فامتدت يده وتصافحنا. قلت له:

– يجب أن تكون بذلك الشخص الذي تسعى أن تصبح مثله، فأنت بحار الآن، وقد انخرطت في البحرية، وقطعت مراحلا تجعل منك شخصا راضيا؛ تفهم ما يُوجَب عليك؛ فلا تنهار لشيء فقدته.

لم ينطق بأية كلمة؛ فما يزال التوتر باديا عليه؛ فحاولت سائلا إياه هذه المرة:

– ما يبدو أنك انضممت إلى الهيئة البحرية برغبة؛ إيه؟

أجاب فورا:

– نعم؛ كانت أُمنية، وأنا فتى أرتاد الاصطيافات وأسبح في البحر.

قلت:

– فأنت رجل تُقدم على الأمور، وتزحف بشجاعة، وإن كان التردد شعور خفي في الباطن؛ سرعان ما ينجلي؛ كذلك كنتُ وأنا أُقْدِم على الخوض في البحر؛ لا تهتم؛ فسنُيّسر لك اجتياز الامتحان. يبقى أن تعدني أن تتقبل النتيجة كيفما كانت.

أومأ برأسه أن نعم.

قلت:

– اِخلع ما ترتديه؛ ألبستُك الخارجية؛ سلسلة ذهبية، أو فضية تطوق بها عنقك؛ خاتم من معدن نفيس أو من حديد. هل على أسنانك الأمامية أغشية من ذهب أو فضة؟ أفرغ جيوبك من نقود معدنية. اِخلع حذاءك الذي ربما يكون قاعه مُدعّما بمسامير.هل تسرب إلي ما بين أسنانك سلك مجهري وأنت تطحن الطعام؟ هل سبق أن أُجريت لك عملية جراحية؛ فقد ينحل الالتئام، وأنت في عمق البحر تحت الضغط؟

كان يجيب وبحركة من رأسه:

- لا... لا... لا...

قُمت وقلت:

- إذن لنرى ماذا سيقول الفحص الآلي. اِتْبعني.

دلفت إلى حجرة الضغط؛ فخطا ودخل هو الآخر، وأشرت إلى كرسي، ودعوته إلى الجلوس عليه، ومددت إليه كمّامة؛ ساعدته على وضعها على خيشومه. قلت له:

- ستتنفس أُكسجينا مضغوطا بدل أكسجين محيطنا الطبيعي؛ وسنزيد في ضغط جو الغرفة؛ يعادل ضغط مياه أعماق البحر؛ لنرى إلى أي حد ستتحمله، وبعد هذا سأشرح لك ماذا حدث، ولأي هدف.

غادرت الحجرة الفولاذية، ودفعت بابها الصلب والثقيل، وأوصدته بالبراغي؛ وفي هذا العمل إحالة دون تسربات من الداخل؛ تُفسد دور الحجرة، وكان يُسمع في آن صوت احتكاك الحديد بالحديد، وصفق للباب، وصرير الدعامات الرهيب.

جلست على كرسي يعلو بجذعي، ويُتيح لعيني أن تراقب أثر ارتفاع الضغط على المُمْتحَن من خلال كوة زجاجية. رفعت يدي باعثا بإشارة إلى مساعدي الذي لم يتأخر؛ فضغط على زر نفث الأكسجين، وعلى آخر بدرجات للزيادة في الضغط.

كان أول آثار ازدياد الضغط، وعب الأكسجين عرقا تصفد به وجه المُمْتحَن، وشحوبا، وطفق صدره يرتفع وينخفض؛ لكن باضطراب؛ ثم سُمعت آناة خافتة تنبعث منه؛ وقد ازداد الضغط، ثم دوّت صرخة؛ فدقّ جرس؛ فعمد البحار المساعد إلى الزرّ

فخفّض الضغط. فَتحْتُ باب الحجرة الاختبارية؛ فخرج البحار المْمتحَن مندفعا من شدة ألم في جسمه.

أمرته بارتداء ملابسه، ودعوته إلى الجلوس على الكرسي، وإلى أخذ نفس واستراحة. كنت أعرف أنه يحتويني بعينيه؛ فيرصد كل حركة آتي بها؛ وقد أخذت قلما، وشرعت بوسم خانات، على مطبوع تدوين نتائج الاختبار. رفعت رأسي ونظرت إليه، ثم قلت:

– بعد ساعة سأطلعك على النتيجة؛ لا تيأس.

طرق هذا أذنيه؛ فلم يبق ما من أجله قَدِم؛ فغادر المكان.

كانت عيناي تُشيّعه؛ إلى أن خرج، وضمّه الممر المفضي إلى الساحة، ولاذ بظل شجرة، واستند على جذعها بيده؛ انحنى عنقه؛ فأُلقي برأسه في اتجاه الأرض، وظل ينظر في التراب المعشَوْشب، والمبلّل بماء النافورة؛ فقرأت ما كان يفكر فيه؛ هلِ استنتج من خلال تفاعله مع حجرة الضغط أنه خاسر؟ ثم استعاد وجوده، وجلس على كرسي الساحة الخشبي، وطفق يجيل بناظريه في أرجاء المكان. إن وراء إصراره تطلعات ملحاحة وآسرة له؛ لا تنحرف عنها رغبته الجامحة؛ وقد أدركت ذلك.

إن ما أُسطره على بطاقة الاختبار أُسأل عليه؛ إذا ما ثبت أني غفلت، أو تهاونت في استنطاق أجهزة الاختبار، وسجلت بدقة ما سُجّل آلياً؛ فأنا الخبير بأحوال الغوص، والمانح لرخصة الغوص؛ إذا ما لقي غواص حتفه، وبعد التحقيق ثبت بأن جسمه، لم يكن يتحمل مخاطر الأعماق؛ فطائلة ذلك تقع على عاتقي.

أُخلي سبيل آخر مُمتحن؛ فوجدتني منفردا بملف يضم وثائق مدونة؛ عليها نتائج الاختبار؛ بعثت بها إلى الطبيب الرئيس؛

أُعيدت ممضاة من طرفه ومختومة. سَللْت من بينها تلك التي عُبّأت بالإيجابي من النتائج؛ وحررت لائحة بأسماء المؤهلين. أمضيتها ثم سلمتها إلى البحار المساعد الذي اعتاد أمر نشرها على حائط الإعلامات في الساحة؛ في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي.

نظرت من خلال النافذة؛ كان البحار المتطلع ما يزال يجول بعينيه المتحفزتين في محيط الساحة. طلبت من مساعدي البحار أن يُبلغه بأمر انتظاري في الفرقاطة (ف.م. كناري) الراسية على رصيف الميناء.

في مدخل حاجز رصيف البحرية؛ صوبت نظراتي في طول الرصيف؛ فلمحت البحار المتطلع ينظر إلى أبعد مساحة من البحر عند الأُفق؛ ما قلت في نفسي هو أنه يستحضر سنوات طفولته، والأمكنة التي برحها، والأشخاص الذين اجتمع إليهم في جلسات إلفية، ويعجب كيف انتهى به المطاف إلى هنا؛ ليخدم بحارا، وليُمهّد لإنجاز ما كان حلم يقظة، ورأيته يتمشى عائدا؛ فأسمع وطآت قدميه على جسر الفرقاطة الحديدي؛ ليغيب في ممراتها، وتصل إلى سمعه وطآت أقدامي على الجسر المترنح؛ فيرافقني إلى الداخل؛ فنجلس معا. قلت له:

– ليس جميع ما نريد تحقيقَه نجد ما يُمهّد إليه، فالواقع يترصّد، وقد يستحيل مقاومتَه.

قال باقتناع:

– أُشاطرك الرأي؛ فللواقع حضور؛ قد نُغافله، ونُخاتله فقط.

قلت:

– خلال المدة التي أُمتُحنْت فيها، واضطررتَ إلى أن تلجأ إلى فضاء الساحة المخضرّ عُشبها، والممتدّة ظلال أشجارها، وتملّيك لأفق البحر؛ ستكون قد عرفت نتيجة اختبارك؟

قال دون استفهام:

– قد أدركت أني خسرته.

قلت باستعداد:

– إذن وكما وعدتك؛ سأوضح لك ما الأسباب الفيزيولوجية، وأين مكامن خطر البحر، وما لا طاقة للإنسان بشيء فهو التهلكة، وما يتعلق بالغطس في أعماق البحر أعقد مما يُتصوّر.

قال باستسلام:

– إن آذاني صاغية.

قلت بتفصيل:

– إن حجرة الضغط الاختبارية؛ هي تمثيل بجميع العناصر الضرورية؛ لأعماق البحر، وقد غُصتَ إلى عمق بعشرات الأمتار؛ فأحسستَ بألم؛ لماذا وكيف؟ ذلك ناتج عن عيوب تَخفى عنك في منخري أنفك وفي قنوات أُذنيك؛ حالت دون وصول الأكسجين الذي استنشقته؛ بكمية كافية تُبقيك على قيد الحياة، وإن لم يكن مُتحكّما في مقدار الضغط لقُضي عليك، واعلم أن ضغط مياه البحر يزداد مع العمق، ووحدة قياسه هي (الديسيبار؛ Dbar)؛ يضغط الماء بواحدة منها في كل متر واحد من العمق؛ تصور كيف سيكون حالك وأنت تنزل في مهمة غوص خطيرة فيها حِمى بلدك؛ لأنك جنديه البحري الذي يذود عنه، وعنصر يدعم أعضاء فريق الغطس ويشدّ من لُحمته؛ تستنشق مقدارا كافيا من الأُكسجين؛

تعبه بفمك من قنينة محمولة على ظهرك؛ في جزء سفلي منها خزان احتياطي للطواريء؛ وإذا ما نَفِد الأكُسجين فإن الذي يصحبك يمُدّك؛ فتعبّان معا من نفس القنينة؛ وأنتما تتبادلان أنبوب التنفس؛ إلى حين صعودكما إلى سطح البحر؛ إذن فأنت ترى كيف تمارس مياه أعماق البحر تأثيرات سلبية على الغطاس الذي لا يُؤهّله جسمه، وفي قولي إليك هذا ما يجعلك أيضا تنظر إلى البحر كائناً؛ يأتي بالفعل مُستسلما لطبيعته المخلوقة، وبعد هذا؛ فليس لك إلا أن تلبي نداء العقل، وتغض الطرف عما تمليه عليك عاطفتك، وأن تحرص على حياتك؛ فلك بآخرين قُربة، وهم في سعادة ما دُمت حيا ترزق؛ تخطر أمامهم. أعرف أن هذا كمن صدك عن شيء تُيّمت به وهو الغوص في عالم آخر.

هم بالكلام؛ فأذنت له؛ قال:

– لم أقصد المكان إلا ولي رغبة كثيرا ما أصابني بسببه سهاد في الليالي الطويلة؛ هل سيتحقق ما أرمي إليه منذ زمن طويل؟ كانت نيتي أن آتي إلى هنا لأتكوّن في مؤسسة مختصة؛ لأُسس بعد مغادرتي لها ناد للتدريب، ولتنظيم رحلات سياحية في الأعماق؛ فيدر علي هذا مالا. إنها النفس تطمح إلى بلوغ العلا.

قلت:

– فكان ما تلقيته هو خسران وإحباط؟

قال بأسف:

– نعم؛ وسأُحاول الصبر على ما صدمني.

قلت ناصحا إياه:

– اِحذر؛ فقد تبقى تحت تأثير ما ألم بك من جراء الاختبار.

حدقت في وجهه؛ فلم ألاحظ ملمح انفراج؛ فما يزال ما يغلي في باطنه يُرقِم على أديمه تعابير يأس، واكتئاب.

قلت متطلعا مرة ثانية إلى عينيه:

– أتصحبني غدا في رحلة سياحية في البحر؛ بأنابيب التنفس؛ لترى ما بالأعماق من مشاهد طبيعية، وإذا وددت اصطياد السمك بنِبال البندقية اتحت الماء؟

ابتسم بآثار وجه صاحب مرض أبل منه أخيرا. قال:

– إني مستعد لما يُرفّه عنّي قليلا.

في صباح الغد كنا قد ارتدينا رداء الغوص، وانتصب أعلى رؤوسنا وعلى جنب أصداغنا أنبوبا التنفس، وزجاج القناعين الدائري على عيوننا، ويدانا تقبضان على البندقتين، ثم زحفنا بالزعانف، وسبحنا على الماء؛ وعيوننا تنظر في عمق المياه؛ نُصوّب نبالنا؛ فأصابت سمكا بحجم متوسط؛ ملأت جِرابينا.

فعاد البحار الطموح إلى مأواه مُخفف الكَرب؛ غانماً.

دأب على زيارتي في المكتب، وفي المركب حين أفرغ من واجبات العمل، أو إذا عدت من إحدى رحلات الغوص؛ فيستمع بشغف إلى ما أقصه عليه من المراحل، وما صادفني من أعاجيب، وكنت أراه من حين لآخر في جمع من البحارة؛ يروي على مسامعهم كيف خسر في اختبار حجرة الضغط، وأنه كان سيصبح من أمهر الغطاسين؛ لو حالفه الحظ، ورائدا في اكتشاف مغاور أعماق البحر، وفي الغطس في بحيرات الكهوف الكارسطية؛ ليرى كائنات لم يسبق أن شاهدها أحد من قبل، وكان سيصور كل ذلك، وسيشاهد العالم ما التقطته عدسة كاميراته، ومُصوّراته تحت الماء.

إنكسار في رصيف (الجرف الأصفر)

إن الشخص الذي يتنقّل في الأمكنة ليُنجز عملا، وأن يحاول ما استطاع أن يُثمر؛ كفيلق من جنود؛ يتنقل في ميادين النزال؛ ليدحر العدو؛ هل يتأتّى له ذلك؛ دون أن يستخبر مجال نِدّه، وقدراته القتالية؟ لذلك كان للمعلومة نَدارتُها وأهميتها، وأوجب الأشياء.

ما اكتسبته من احترافيتي في الغوص؛ هو أن لا أرمي بنفسي في خِضمّ عمل؛ دون أن أعرف جميع العناصر المشترِكة في وجود بيئته، وما ينبغي لولوجها، وما يُسْتلزم لسبر أغوارها، وكيف الفِعْل فيها؛ وهذا لا يُنال إلاّ بقراءة ما سُوّد على الورق، وما رُقِّن على الأسطوانات الصُّلبة، وما حُمّل؛ ففي القراءة والاطلاع زحف إلى ميادين الكفاح؛ ففي عام 1987م، وفي عصر يوم من شهر غشت؛ تكون مياه البحار والمحيطات في أدنى مُستوياتها، وفي أقصى جَزرِها، وامتدادا لمياه ضحلة وصخور تغطيها برك وطحالب؛ أَسِنت بأشعة شمس الصيف اللافحة، وكالفلاّح لا يُفلح في فصل شحيح المطر، والتاجر لا يبيع في موسم كساد؛ دلفت إلى مكتبي؛ فاختطفت نظراتي مُراسَلَة واردة؛ فالتقطتها يداي التي أُدمتها وخزات الروتين، وبحركة لا مبالية، وكدت أن أُسرع في القراءة، وأقفز على السطور لاستخلاص مُحتواها؛ إلا أن موضوعها استوقفني، وهو: عملية معاينة لميناء (الجرف الأصفر).

تساءلت: «ما أختص به هو ما يجري في أعماق البحر، وقد أُلقيت كتل الأسمنت المثلثة الرؤوس، ومُدّ على أساسها رصيف رسو السفن، وانتهى الأمر؛ فماذا حدث؟».

لم يزد محرر الرسالة عن ما تطلبه إدارة الميناء؛ وهو تعيين غطاس لينظمّ إلى فريق يتحرّى عن حالة رصيف ميناء (الجرف الأصفر). قلت: «ما لم يُذكر بتفصيل فهو مُتكتم عليه». قُمت إلى الآلة الكاتبة، وألقمتها ورقتين؛ بينهما ورقة التحبير السوداء، وضممت يدي إلى بعضهما البعض؛ فتشاحنتا بسخونة جسدي، وأطلقت العنان لأصابعي، لتُرقّن الورق بما صاغه فكري من إجابات على الطلب، ثم أودعته ملفا، وبعثت به إلى نظيري الرئيس؛ ليُمضيه، ويُرسله إلى إدارة الميناء.

كان من توافق عليه -في اجتماع- قادة البحرية الرؤساء للغوص في مياه الميناء هو أنا؛ فاستعْددتُ لذلك.

هل أتصدّى لمن ولما يُعسكِر هناك بغير حُسام؟

ليس ما تعودت على أن أغضّ الطرف عنه؛ فقد قصدت رُفوف المكتبة، مسحت بعيني عناوين المجلات الموسمية والفصلية والشهرية؛ التي ترد على القاعدة البحرية. تصفحت إحداها؛ فعثرت على مقال مُقتضب يتحدث عن ميناء (الجرف الأصفر)؛ فمِمّا استقيته من معلومات؛ أنه يقع على الساحل الأطلنتي؛ عند التقاء خط طول 8°؛ غرب خط (كرينيتش)، وخط عرض 33° شمال خط الإستواء؛ على بعد 120 كلم إلى الجنوب الغربي من مدينة الدارالبيضاء، وعلى بعد 14 كلم في نفس الاتجاه الجغرافي من مدينة الجديدة. بُوشِر في بنائه في سنة 1974م، ولم يُجهّز لاستقبال السفن إلا في سنة 1982م. يصل طول رصيف تكسير الأمواج إلى 3200 متر، ورصيف الرسو157 مترا، واتساع حوضه 190 هكتارا، وما يُفيدني أنا كثيرا وذو أهمية هو أن عمق مياهه ما بين 5 أمتار و15

مترا؛ إذن وما عَرض الأمر بفكري هو أن بناءاته قديمة؛ عمّرت أكثر من عقد من الزمن، وما أُذيع من خبر أهمية موقعه، وبنيته التحتية التي يُتطلّب أن يكون بها في التبادل التجاري الدولي؛ هو أنه يتطلب إعادة في فحصه وفي صيانته بما يُؤهِّله، وفيما مدى تماسك أرضية أعماق مياهه الصخرية؛ فللأمواج الزّاحفة، وفي تلاطمها أحيانا قوة تدميرية. تشقُّق ونخرٌ تدريجي في جُدُره؛ قد يُحدثان انكساراً في بعض جنباته، فتليه انهيالات، ثم يعقُبُها الانهيار.

لم أدع ما بِيدي من أوراق المجلة، وظلت عيناي تتعقبان الكلمات والجمل؛ ذات دلالات ما هو أهم ما في الموضوع؛ فأُمعِن فيها تفكيري، وأسرح بتأمل في موقع الميناء الجغرافي؛ فهو يحتل مكانا من مجال يجعله ينفتح على الخطوط البحرية الدولية؛ في امتدادات تلك الآتية من قناة السويس؛ إلى مضيق جبل طارق، وتلك العابرة لبحر (المانش)، والذاهبة إلى جزر (الكناري)، وما بعد هذه إلى جرز (الأنتيل)، ومن هذه إلى أمريكا الجنوبية؛ لأجل هذا لا بد أن تنطبق عليه المعايير الدولية.

جعلني طَرْقٌ على الباب، ودَفْعٌ للدفة، وظهورُ نظيري الرئيس؛ أن أغادر مُتخيّلاتي من عالم الموانئ، ومُسطّحات البحار المائية. أول ما تحدثت به إليه هو ما وجدني أطَّلع عليه؛ لأتزود بمعلومات عن الميناء، وإن لم تكن كافية. قال لي، وآثار اهتمامه بالموضوع على وجهه:

– ما المعدات المناسبة للغطس؛ الخوذة، وأنبوب الأكسجين اللّدِيني وحذاء الأعماق؛ أم القنينات والانسياب بالزعانف؟

قلت:

– جميع هذه المعدات مناسبة؛ إلا أن الثانية ستُتيح التنقل أفقيا؛ وبحُريّة مع امتداد الرصيف.

قال بتأهّب:

– سنكون بمُعدّاتنا في طريقنا إلى الميناء؛ في الساعة السابعة من صباح الغد.

قلت موافقاً:

– إنه وقت نبدأ فيه يومنا بصفاء في الأذهان.

لم يكن ممن تجري به السيارة ذات لون البحرية الأزرق؛ غيرنا؛ أنا ونظيري الرئيس والبحار المساعد، ورابعنا السائق؛ هذا الأخير أبى بغير اكتراث إلا أن يضخ سائل الوقود في المحرك بحركة من رجله؛ فتتدافع بانفجار ضغطي الأسطوانات؛ دافعة المركبة بسرعة؛ تطوي بها المسافة خلال ساعتين.

خطوت على رصيف الميناء بثلاث حركات؛ يد تمسك بكأس قهوة حليبية، ويد تُحكم قطعة خبز مدهونة بالزبدة ومربى المشمش، وطواحن تُفتّت ما أمضغ؛ أُحدّق في مكونات الرصيف الأسمنتية، وأرسم في مخيلتي القضبان الحديدية المدفونة، وبحثت حيث توجد مسطرة قياس العمق؛ فنظرت؛ فكان رقم 10 أمتار هو مستوى ماء حوض الميناء. كان نظيري الرئيس يخطو إلى حيث تطأ قدماي.

قال يستحثه برنامج العمل:

– إن مدير الميناء ينتظرنا في مكتبه.

قلت، وأنا أجول بعيني في بناية الإدارة:

- ذلك من الرسميات، ولا يهمه هل في القاع رأس قضيب من حديد مسنون؛ تحجبه عنك مياه الحوض الملوثة؛ قد ينفذ من جسدك.

قال نظيري الرئيس بذُعر:

- السلامة قبل كل شيء؛ وإلا نغادر، ونترك الأرصفة يبتلعها البحر.

قلت بثبات:

- سنأخذ حِذْرنا.

سار نظيري الرئيس؛ فلازمته في طريقه. ظهر المدير بالباب الرئيس؛ ببذلة تُراقِص حركاتُه ثنيات ثوبها، وبربطة عنق تُمتّح لونَها من لون الحُلّة، وبحذاء لامع جلده. ابتسم في وجهينا مُرحبا، ودعانا إلى قاعة الاجتماع. لم يُخْفِ عنا ما يشبه كارثة قد تحصل بسبب لم يُعرف بعد. قال:

- في فصل الشتاء الفائت، وفي أوج المدّ البحري؛ كانت الأمواج تجلد الرصيف؛ فيتعرض لما يشبه بحركة تِكْتونية؛ فالمياه الصاخبة والمندفعة بقوة تُزلزله؛ أتمنى أن يبقى هذا في طي الكتمان.

قال نظيري الرئيس بتريث:

- سنحاول أن نعرف بيئة أعماق البحر، وطريقة بناء الرصيف. ثم هل يوجد تزحزح في مستوى من جداره؟

قال المدير برجاء:

- لهذا لم نر في غيركما ما خبرتماه فيما يجري في عمق المياه؛ فعيونكم تمرست على ذلك، واعتادت على النظر في بيئة البحر، كما أن لديكم من المعدات ما يُؤهّل.

قلت؛ ورغبة في الغطس لخوض تجربة فريدة تُخالجني:

– سأغطس ما استطعت من الوقت؛ لأتبين ما مدى نجاحنا أو اخفاقنا.

قال المدير مُتعجلا:

– لتشرعا في فعل ما فيه لكم دراية ومعرفة.

غادرنا كراسي وثيرة إلى حدّ ما، وتركْنا المدير، وما بيمينه وشماله، وأمامه؛ من ملفات، ومُتَشَكلات ورقية وجلدية، وهاتف؛ بمكانه الفسيح؛ يفوح فيه الأريج. يطل بهامته وبجذعه من أعلى طلاء مكتب بلون بُنّي لامع. خلفه رف عليه أحجام من منشورات؛ يُلفت اختلاف ألوانها الأنظار، وفي نفسي إعراض، واستساغة لشيء آخر غير مكاتب الركون.

في الخارج رأينا حبلا من أسلاك مفتولة؛ يُفرغ محرك بكرته منه؛ تاركا قاربا مطاطيا؛ بمحرك مُوجّه؛ يجذبه رصيف منحدر إلى الماء؛ ليُخلّص منه؛ فأركبه، وكنت لابسا ما يقيني من برودة المكوث الطويل في الماء، وقنّينتا الأُكسجين على الظهر، ورجلاي تنتعلان الزعنفتين. أمرت البحار المساعد بأن يتجه بالقارب بعيدا عن جدار الرصيف؛ لأنّي لا أعلم ما يَنْتأ منه وما خطر ذلك؟ ثم غُصْت ونظرت في ماء بممزوجات؛ هذا يتيح الرؤية على مدّ متر فقط؛ فتقدمت باتّئاد إلى أن برز جدار الرصيف؛ فوازيته وسرت أُحدّق في غشائه الأسمنتي؛ في أدنى مستوى منه إلى طرفه الذي يُفْضي إلى البحر، ثم عدت لأقوم بحركة تراقصية ذهابا وجيئة؛ فما شاهدته انكسارات أُفقية، وأخرى عمودية؛ نتج عنها تهدّل في بعض جهات الرصيف، وعند كلّ ما يهدد بالانهيار؛ أضرب بقوة بالزعنفتين؛

فتدفعاني إلى السطح؛ لأظهر؛ فأشير؛ فيُوسِم أحد المتخصصين في الطبوغرافية سطح الرصيف؛ ليهتدي به من سيصون الرصيف ويدعّم أساساته، وفي غطسي في الماء مرة، وفي عومي على سطحه مرة أخرى مشقة، وفي التّأنّي وفي التريث تَّغلُّبٌ على تلك المشقة، ولا بد من إنجاز عمل يمهد لحصيلة مشروع؛ يلبي حاجيات الجماعة؛ يكسب منه الذي أفلح بجهد ومثابرة فخراً؛ لأن ما أثمر يصب في الهدف العام، وزد على هذا ما يتراكم من تجارب؛ الفشل في بعضها دروس، وفي نجاحها مكسب.

كُنّا من قبل لا نحرك ساكنا، ونجدد مياهنا الراكدة؛ إلاّ باستقدام أحد المتخصصين من الأُمم التي سبقتنا إلى التمدن، وإقامة الصروح الأسمنتية؛ فنحن الآن في غنىً عنهم، وفي إلقائي لدروس الغوص النظرية؛ أُشذّب وأصقل المتلقي المتدرب؛ ليأخذ وضعه في المسار الذي لا يقود إلا إلى من أجله جيء به، ولا ينحرف عنه، وهو خدمة وطنه؛ باختلاف شرائحه، وإثنياته، وسُحناته؛ فلا يفرق بين هذا وذاك، ولا ينزاح إلى تواطُؤ يثير الفتنة والنّعرة.

ثلاثة أيام وأنا أعتلي مطية البحر، وأهبط في القيعان،، وأتفادى ما لم يُنظر لخطره في حينه؛ كالقضبان الزائغة عن الجدار، وما أُلقي بلامبالات من خردة حديدية أو قصديرية أو بلاستيكية، والحالة تحتاج إلى آلة كاشطة تجرف ما حثِل من النّفاية، وبعد عصر اليوم الأخير رحلت راجلا في الشاطئ، ووجدت من المصطافين الكثير؛ فمنهم من تمدد يستلذ بما يبعث الدفء في ظهره وبما يُلهِب صدره، وآخرون يلهون، ويقْصِفون، ويجالسون بعضهم البعض، ويُنكِّتُون، ويطربون؛ هل في خَلَداتِهم أن من رجال جند من يخفى وعيونهم

يقظة، ويترقبون زحف غاز محتمل؛ يُخِلّ بما انتظموا فيه من مُتع، ومما يُرفّه به ويُستروح؟

نظرت إلى الأُفق؛ كانت الشمس تميل إلى أن تغيب وراءه؛ بذيول من ضوء أحمر؛ يُثير شجونا وتأمُّلات، ويُلقي برداء من سكينة على الشاطئ؛ الذي كان بعد قليل صاخبا؛ فأعود وقد زحفت ظُلمة، وقدماي تغوصان في رمال؛ يُليّن ماء الموج ذرّاتها؛ مُستحضرا قارية تلك الهضبة التي أقيمت على حافتها بيوت مدينة (وادزم)؛ مسقط رأسي؛ المطلية بالجير الأبيض؛ في مثل هذا الوقت يتراقص لهيب رياح الشرگي فوق كُوَم سنابل حقولها، وعلى هشيم الحصاد، وعلى تربة الأراضي البنّية اللون؛ الجافة، ومُتخيِّلا في آن سطوحا مائية أخرى وأعماقَها؛ مُتيقّناً أني سأبحر إليها.

عندما رجعنا إلى مُعسكرنا الدائم بالقاعدة البحرية؛ حرر نظيري الرئيس تقريرا بما أنجزه فريقنا الذي انتُدب؛ بعث بالأصل منه إلى القيادة البحرية العامة، وبنسخة منه إلى إدارة ميناء الجرف الأصفر، وأنا في السنوات الأخيرة من العقد السادس من عمري؛ وقد أُحِلت على التقاعد في السنة الخامسة من الألفية الثانية؛ تأملت ما أُضيف إلى الميناء، وإلى الدور الذي أصبح يؤديه، ويساهم به في تطور ميادين الإنتاج، وتحسين الوضع الإجتماعي، وتساءلت بزهو: «هل لدَى من خَلَفَنا ما يضيف، ويضع لبنة، وقد أحكم صُنعها وشكلها؛ ليتماسك بها البناءُ، وبما وضعناه نحن قبله؛ فلا يُزعزِع من كان استقرارَه؟».

في مساء ذلك اليوم الذي عُدت فيه إلى البيت؛ تحلق حولي الأبناء؛ فسردت عليهم حكاية غواص؛ يحرس قرية من تحت البحر؛

يحارب أخطبوطا عملاقا؛ كان يحاول أن يُمدّد خارج الماء أطرافه المرنة، ويشد بمسامه على الأرض؛ إلى مضاجع القرية؛ فيها أطفال نيام؛ فأصابه برمحه؛ وأرداه قتيلا؛ فنجى الصّغار من بطشه.

مَوجَان البحر

كانت إحدى مُدمّرات بحرية المغرب من الراسيات على ميناء مدينة (بريست) الفرنسية؛ في اليوم السّابق لأكبر احتفال سنوي يجمع مراكب العالم الشراعية، والفرقاطات الحربية، وسُفُن البحوث العلمية والعسكرية؛ أتت من كل حدب وصوب؛ كنت من بين أفراد الطاقم؛ أستعظم هياكل عملاقة عائمة؛ بثلاث سوار وأربع، ونموذجا مصغرًا لأخرى بخمس لمشروع بنائها، وأشرعة منشورة؛ باسقات في الجو عاليا؛ بمئات الأمتار المربعة؛ إنه مشهد للرقي، وثمرة الخلق، والتجديد، وتراكمات مئات من السنين؛ فالبحر محك الأمم، وحاجة ركوبه تتطلب الإبداع، وتستلزم التفكير في كيفية مهادنته، أو مغافلته أو مقاومته، ومعرفة طبيعة سطوحه وأعماقه؛ ثقافة خاصة تستوجب الإلمام بها، والجهل به هلاك لا مُزاح فيه، كما أنه محط منافسة وسباق لارتياده، وللانقضاض من البحر بزحف، وهو لنا نحن في ضفة البحر الأبيض المتوسط الجنوبية؛ قاب قوسين أو أدنى، وترقب لما قرُب، ولم ينأ لنسلم.

مهد المهرجان الطريق، واستنهض الهمم، وأجج الرغبة في ارتياد الآفاق؛ فتلاقت في خليج (بريست) نماذج ما يُكوّن أساطيل الدول من القطع البحرية، ونظر طواقمُها إلى مستوى ما يبحرون به، وإلى الآخرين، وطُرِح السؤال: «هل نحن قُرناء وأنداد؛ أم لا طاقة لنا بهم، والخير في العودة ومراجعة الذات؟». كان الاحتفال بغير حدود؛ فإلى جانب استعراض مستوى ما وصلت إليه البلدان من بناء للهياكل العائمة؛ القديم منها والجديد، وتطوير صناعةٍ

واستخلاص كيميائي لمواد تركيبها وتغشيتها، والقابلة للصيانة؛ محاضرات تُلقى في تاريخ الملاحة البحرية، وفي تقنيات الإبحار، وغناء بحناجر ذكورية؛ في خشونة صوتها رمز لمنازلة هيجان البحر؛ الذي يُزمجر؛ فلا يُلاطف.

إن كان ما أقصه تجري أحداثه على سطح البحر وليس في أعماقه؛ فلأن ما وقع من مَوجان لم يسبق أن حييته من قبل؛ في بحر الغرب من (جبل طارق)، ونحن في طريق عودتنا من مهرجان (بريست) البحري، وكنا قد شاركنا بسفينتنا الحربية، وبمظهر بلاد بحرية لا تُقهر؛ في ذهابنا سكن البحر؛ كان وديعا؛ ناعم الملمس؛ ننتشي بإذعانه لسير هيكل المركب؛ فقد أراد أن يختبر جَلْدنا ومدى قوتنا ومعرفتنا به، وهل نحن على ما أبديناه لمنافسينا في الشمال؛ فلم تكن غضْبته سريعة؛ تلاها رجوع؛ فصفح؛ بل أتى محيطُنا المائي بما قد يهلكنا به بالتدريج. كانت شمس إحدى الصباحات من شهر أبريل ساطعة، والأشعة شآبيب أدفأت الجو؛ فسعدت النفوس ومرحت، واستجابت أعضاء الأجساد لبيئة وضّاءة دافئة. ما حجب الشمس في أحد الأوقات غمامة، وهبّ نسيم بارد؛ فسرت فينا قُشعريرة. رفعت رأسي نحو السماء، فرأيت تجهّما في صفحتها، ونظرت وراءنا في أُفق الشمال الذي نُودّعه؛ فشاهدت ظلال سحب سوداء تُقبل، وزاد تكاثف الغيوم، وأطبق حجاب رمادي اللون على البحر، وأُسدلت أستار من الجو، وتماهت في بعضها، واكتنف غيْهبٌ عالم مدى رُؤيتنا، ثم أحاط بنا من كل جانب، فلم نعد نميز خط الأفق؛ وكأن هوة عالم آخر غير أرضنا ابتلعتنا، وأعقب ما امتثل أمامنا هبوب رياح؛ تخيلتها وهي تقتلع أدواح اليابسة

اقتلاعا، وتعصف بأعمدة المدّ الكهربائي عصفا، وتُطوّح بصفائح السطوح وتعلو بها، وتُهدّم ما لان من أطيان الحيطان، وتهدّم تماثيل من تفننوا في نحت طلعات أعلامها وشخصياتها، وما شمخ من أسلاك وقضبان؛ كان يُتلهّى بما تعرضه من ألعاب، وتُبعثر أنادر حصاد الحقول، وتُرعب الطير؛ فينتظم في أسراب ويُهاجر، ومن يحتويه الخضمّ كما نُبحر نحن الآن ولا قدرة له على المكافحة؛ هل سيبقى أم سيُبتلع؟

سقطت قطرات قوية على وجهي وعلى ظاهري يدي؛ قلت: «كل هذا ما أمطرت، ولا مطر غيره»، وجُلت بهامتي في أرجاء عليا؛ كانت بطون السحب الثقيلة سُطوحَها؛ مُستطلعا ومُتمنّيا أن لا تَدْفق بما تشبّعت به من أبخرة وذرات ماء؛ غير أن ما انهمر هو سيل ملأ دنيانا، ولا يُشك في أنه جرف بناءات عقود من الزمن، وأغرق الكائنات الآدمية والحيوانية والنباتية، وأماتها، واختفت قرى، وشُوّهت بنيات المدن التحتية؛ فلم ندر هل تطفو سفينتُنا على ماء، أم ترفعنا بساطات الغمام؟

لم يَبْد لي البحر في ذلك الوقت، وكما ألفنا يغضب سريعا؛ ثم يرجع بمثل ذلك؛ فيرِفِق بنا؛ فلا نرتاع منه، ونصادقه، ونستأمن جانبه. جلْجل؛ فبث الروع في نفوسنا؛ فارتفع الموج؛ فهُو بسطوح مُتغضنة تُلاعبنا، وتُميلنا؛ ثم هو بقمم جبال علت؛ فكانت بعشرة أمتار أو أكثر؛ لها انحدارات تهوي بنا، وقعور يتراءى لنا أننا سنُدفن فيها وإلى الأبد، والجميع صامت. أحاط بالقائد من يختص في قراءة طقوس الأجواء، ومن يعرف كيف يُراوغ الأمواج الصّواعد، ويوجه مقدمة السفينة لتخترقها، وتمهّد لإبحارها، ومن دفعته حماسة

الاتحاد؛ فقدِم ليُؤازر؛ فلم تش العيون المنفلتة من المحاجر بغير الخوف الشّديد؛ الذي خيّم؛ من مخاطر ثلاثة؛ صِدام بإحدى سفن الشحن العابرة للمحيط الأطلنتي؛ لا ترانا لعُلوّ عِمارتها، ولا شيئا يُتيح التدقيق في مدى بُعدها أو زحفها علينا، أو شاطئ صخري يُفكّك مركبنا، ويُهشّم صفائحه وضلوعنا وجماجمنا، أو لا تنفع طوافات السفينة؛ فيحتوينا البحر، ويُغرِقنا في أعماقِه. نطق القائد بما زاد في يأسنا؛ قال:

- في أي اتجاه نحن؟

نظر الممسك بموجّه الدفّة إلى شاشة الإبحار الإلكترونية وإلى البوصلة؛ فلم يجب؛ كان ما يمعن في دلائله مُبهماً.

قد غادر القبطان رداء ذلك الشّخص الذي تعلم وتدرب، وألقى بسلاحه واستعدّ بعزم لا ينفع؛ فسأل مرة أُخرى:

- هل نُبحر في اتجاهنا؛ أم تجرفنا تيارات مضيق (المانش؛ Manche)، أو تتوغل بنا المياه في شمال المحيط الأطلنتي؟

هل يجد القائد بيننا من يُجيب؟ فانمَحَق.

سمعنا نداءِ يستغيث، ومن تنبّه لما هو أخطر في آن؛ أقبل بحار وقال:

- أحدنا تلتفّ ساقاه بقُضبان درابزين جانب السفينة؛ ويتدلّى رأسه؛ يصفع الموج جمجمته.

قال الثاني:

- إننا أيها القائد لا نسير؛ فالمراوح تدور في فراغ مُنحدرات الأمواج، وتتخبّط في بحر لا مسطحا له؛ فلا نتحرّك قيد أُنملة.

أسرع بحّاران؛ فأُسعف من تدحرج وكُسِرت رجله وأُلقي، وكاد أن يُلتقم، واستدعى القائد تقني المحركات؛ فأمره قائلا:

– ما إن يعتلي المركب سطح موجة؛ سأُعطي إشارة فتُسرّع المحركات؛ لتَثْبُت المراوح في الماء؛ فتنخفض المؤخّرة، وتعلو المقدّمة لينتظم بنا الإبحار.

وكذلك فعلا بإصرار وترقب؛ فنجحا.

– إننا أيها القائد في اتجاه جنوب –جنوب –غرب.

صاح من أمعن النظر، وشاهد، وفكّر، ثم ضبط؛ فأُديرت الدفّة؛ لقد رأى الذي حذّر أن السفينة تنأى عن شواطئ إفريقية إلى الغرب؛ فأمر القائد قائلا:

– لن نتابع طريقنا إلى ميناء (الدارالبيضاء)؛ فقد أنهكتنا العاصفة؛ سنُبحر في مياه البحر الأبيض المتوسط ونرسو في ميناء (الحسيمة).

وصلنا اتصال من القاعدة البحرية العامة؛ أُعلمنا بأن أعطابا أصابت أبراج بث الصوت والتقاطه، وقد أُصلحت، وأننا بأعين المهتمين، ولا تُحلق حوامة المعاينة والإغاثة إلا بعد أن تهمد العاصفة؛ فهي في البر أشد وطأة من البحر؛ فقد عطّلت كل شيء.

أنِف أفراد الطاقم؛ فهُم في ساحة الوغى. ذهبت نبرات الصوت الآتية من بعيد أدراج الرياح، وجاءت خافتة. كان هبوب الريح وتلاطم الأمواج أحَدَّ وأقوى؛ وإن طرقت الآذان؛ إلا أنّنا لم نُعر اهتماما. هل يفشل القائد والفيلق فيُسْخر منه ويُصبح أضحوكة؛ ويبرح منبر البِحار ذليلا؟ ولم يُحسن ولم ينفعه ذكاؤه ولا ما لُقّن ولا ما خَبَر، وفي كل نفس عنصر منا إباء؛ إذا ما حلقت الحوامة، وأرسلت حبال الإخلاء؛ فلتعُد من حيث أقلعت؛ فقد أبلينا؛ إما

نحن أبطال يعتلي هاماتنا الغار؛ أو محاربون تقهقروا؛ يجرُّون ذيول الهزيمة. هل نخذل هذا المجسم الحديدي الذي بدا جوادا نمتطي صهوته، ويجري بنا بصبر لا شكاة فيه، ونتركه طعمة سائغة للبحر الهائج؟

رفرفت الحوامة بأجنحة مراوحها؛ فردها القائد على أعقابها، ومضى يقرأ خرائط التنبؤ الجوية، ويقيس ما بقي من أميال المسافة التي تفصلنا عن الميناء؛ فاستبشر بما لاح من بعيد؛ ما تبقى من أفول السحب الزاحفة إلى عمق القارة الإفريقية؛ فهدأت الريح وانقشعت الغيوم؛ فظهر الأُفق، وأهدت الطبيعة لأفراد الطاقم شريطا حريريا بخيوط اختلفت ألوانها، وامتد بقوس معلق في قبة السماء؛ من مشارق الأرض إلى مغاربها؛ إنه قوس قزح، وحلق طائر النورس في الفضاء؛ فكان علامة على قرب الساحل، وأظهرت عدستا المنظار المكبر علامات اليابسة. انسابت المدمرة ببطء، واحتضنتها أرصفة ميناء (الحسيمة) بحنان، واتكأت بجانبها الأيمن على أحدها؛ فهنّأنا بعضنا البعض، وشدّ القائد بحرارة على أيدينا، وقال:

– لن اختال بعد اليوم بما أنال من رتب ونياشين وأوسمة؛ فأنا بحار بينكم لا غير، وسيظل هذا السفر الذي ماج فيه البحر مستسلما لطبيعته ولدوره؛ في أعظم فعل لها، وهو أنها تعيد توازنها للبيئة المحيطة بنا؛ لأننا آذيناها، ودمرنا أفضية منها، ولم نذود عنها.

حُرّر تقرير يُفصّل في ظروف الرحلة، وبُعث به إلى قيادة البحرية العامة، شاع بين بحارتها، فنظروا إلينا دوما بتعظيم، وتبجيل.

الدّلافين الأحِمّاء

كان عجبا ذلك الذي رأيته في أول سفر لي في البحر؛ في الأرض هناك من يتآلف معك،؛ من قطط وكلاب وسلاحف وغيالم[15] وحمير وبغال وأحصنة، وحتى الكواسر واللواحم المفترسة، وفي البحر لن تجد نفسك وحيدا، وقد قُدّر أن تسافر فيه؛ فالدلافين تسبح في أثرك بحميمية؛ قانعات؛ لا تُلحف في السؤال، وتخدمك؛ فهي تابعك وأجيرك.

نغادر ميناء (الدارالبيضاء)؛ فنجدها في انتظارنا في عُرض المحيط؛ ونحن نُبحر؛ فتنْضمّ إلينا في موكب، وتُسرع بسرعة المركب. وقد قلت في أول لقائي بها أنها ستَكلّ السباحة، فتتخلف عنا، وتُغادر إلى حال سبيلها؛ إلا أن هذا لم يحصل، وما تزال حتى نجتاز رأس شبه الجزيرة الطنجية؛ نرمي إليها بالغِذاء؛ فتَلْقِمُه وهي تمخر مياه البحر، ويُسمع احتكاك بدنها بالموج؛ فنُسْتأنس بذلك.

أبيت إلا أن أحكي عنها، وما لمسته فيها من أُلفة سعت هي أولا إلى طلبها، وبمودة لا دافعا وراءها؛ إلا ما تُطعمها به؛ فتجدها بجانبك، وعُمتُ غير ما مرة، وقضيت وقتا طويلا في مداعبتها وسبْقها؛ فإنه الكائن الذي تعكس خِلقته خُلقه؛ في انفراج ما بين عينيه وخيشومه، وفي ابتسامته الدائمة جاذبية، وقد قرأت أنه يُنجّي الغريق بحمله على ظهره، ويظهر هذا جليا عندما يشد المروض بإحدى زعانفه؛ فيسبح هو به، وهو كائن بحري مُشارك ومِعطاء؛ يَثرى باستعراضاته ممولوا الألعاب والملاهي. أذكر خرافة الكاتب

---

[15] مفرده غيلم؛ وهو ذكر السلحفاة.

الفرنسي (جان دو لافونتين؛ Jean de LA FONTAINE)؛ (القرد والدلفين)؛ لعله النص الأدبي الأول الذي يحكي عن دلفين يُغيث جماعة من الناس؛ غرِق مركبهم في زمن الإغريق؛ غير بعيد عن مدينة (أثينا)؛ إذن فإغاثة الدلفين للإنسان كانت معروفة منذ العصور القديمة، وابتغيت أنا وبرجاء أن تفعل الدلافين شيئا من أجلي، وأنا أعي مخاطر الغوص؛ فما يتهددك هو أخطبوط كبير، وأنت تغوص؛ تحرن بك رغبة الاستطلاع واكتشاف ما يقبع في الأعماق؛ بعيدا عن متناول الأياد الآدمية؛ من بقايا السفن التي كانت تُبحر من سواحل أمريكا اللاتينية؛ مُحمّلة بالذهب، وما تفنّن الصّاغة في تشكيله بالمعدن النفيس؛ فهجومه في غاية الخبث؛ يلوي أطرافا منه على الأُنبوب الذي تعبّ منه الأكسجين؛ فينتشله من فاهِك، و بأخرى يسحبك، ثم يجرك إلى كهفه؛ فأتخيل الدلفين الذي يُغيث الغرقى، ويجعل ظهره مطيّة لهم إلى شاطئ النجاة، وكذلك يفعل فيذود عني، وأنا ماض باطمئنان أُنقّب في جوانب السفينة المنخورة عن كنز الذهب المفقود؛ بدون اضطراب ولا خوفا؛ من أن يزحف إلى منازلتي ذلك الأُخطبوط؛ فيَحول بيني وبين ما أهّلني من امتهاني للغوص ولبلوغه؛ فأُضيف هذا إلى ما راكمته من تجارب، ومغامرات قمت بها في أعماق البحر.

إذا ما وافتني المنية لخطر أحْدق بي، وأنا في العُمق؛ فليس من الكائنات غير الدلافين التي ستُكفّنُني بأعشاب البحر، وتُشيّعني في موكب جنائزي مهيب؛ إلى اليابسة؛ لأُوارى تراب البرية، ولا يذرف الدموع حزنا للمصاب الذي سيحُل بي، ولأثر النازلة عليه وللفراق الأبدي؛ إلا تلك الدلافين الحمائم، وفي نيتي، وما تقتضيه المودة

التي جمعتني بالدلافين أن أردّ الجميل؛ فأقل ما فعلته من معروف هو أنها أسعدتنا نحن البحارة والغواصين، وأضفت على أفضية البحار والمحيطات جواً من الحركة والحيوية، وظُنونا حسنة بعالم الأعماق؛ فلا سيادة فيه فقط لسمك القرش؛ المتنسم للدماء، والفاغر لكف طواحنه شوك حاد وقاطع، وللحوت القاتل للفقمات الوديعات، ولكائنات بمسام سامة، واستعد لحمايتها من صيد جائر؛ قد يُبيد نوعها، أو أُوجد في ناحية، وفي وقت تكون فيه الدلافين تتنفس بغلاصمها آخر ما يُبقيها حية؛ وهي حبيسة شباك صيد، أو يشدّها رأس صنّارة حاد؛ معقوفة شوكتُه؛ فأُخلّصها منه رحمة بها. لم يكن ما تصورته، وأزمعت على القيام به إلا إحساسا بأنه سيحدث في يوم من الأيام؛ فقد نشأت بيني وبين مجموعة من الدلافين صداقة؛ فأُبحِر بقارب وأتوغل به في البحر، وفي جهة بعينها؛ فيخِف أفراد تلك المجموعة إلى لقائي؛ فأرمي إليها بكمية من سمك السردين، وتظل تترقب المزيد؛ فتسبح وتقفز عاليا، وتغطس؛ ثم تتقدم إلى حاشية القارب؛ فأُربّت على خياشيمها بمودة، ثم أُحييها وأعود؛ فما تزال في سَبْق معي، حتى تعي بأنها دنت من مياه ضحلة قاتلة لا تصلح لها؛ فترحل إلى بيئتها التي تأقلمت معها.

هذا اللقاء الدؤوب هو ما التقطته عينا صياد نهمتان؛ فاحمرت هذه؛ لغدر فعل بيته ذلك الرجل المعوز والتّعس في داخله، وقد أقدم على ما سأقُصه.

كنت قد عرفت دلافين المجموعة كما أعرف أبنائي، وسجلت في كُنّاشاتي أسماءهم وأوصافهم، ومن منهم يأكل بشره، ومن يستحيي

فلا يُبادر بحصته حتى تدعوه إلى العشاء أو الغذاء، ومن يُصعّر خده لي في إباء؛ فتستميله وقد أتعبك، وقد تيأس، ولكن لحبي لها أصبر بدون تذمر؛ حتى أُلقمه سمكة أو سمكتين؛ إلا أن ما تبينته في أحد الصباحات على غير ما اعتادت، وما ألفته عيناي من مشاهدة رؤوس الدلافين وهي تطل من مياه السطح؛ فأعدُّها كما يعد راع في أوبته من المراعي مساء شياهه وهي في الزّريبة، ويخاف أن يكون الذئب قد استغفله والتهم إحداها؛ هو نقص في العد؛ فانطلقت عيناي تبحثان؛ هل تأخر أحدهم أو انضم إلى مجموعة أخرى ورحل، أو أُصْطيد ليكون لحمه وجبة غذاء، أو سُرق ليروض؛ ليُمتّع المتفرجين؟ فحزنت للفراق، ووجدت عزائي في الباقي، زادت رغبتي في الاعتناء بالدلافين، وفي اليوم التالي افتقدت رعيتي؛ فوجدت ما أغضبني؛ فقدان فرد آخر، واستمر عدّي في كل مرة، وانخفض العدد؛ فتراءت لي صورة أرعبتني؛ فقد آتي يوما فلا أجد غير البحر قعقعا صفصفا، وأنا عائد أسيفا في الساعة العاشرة من صباح؛ يشد نظري الرهط من الناس الذي يملأ مكان سوق بيع السمك؛ خطرت لي فكرة التوجه إلى هناك لأنظر ما عسى أن يباع من الكائنات البحرية؛ فوجدت لحم دلفين يُعرض للبيع؛ سألت التاجر عن البحر الذي تُجلب منه أسماك الدلافين؛ فأجاب بأنه ليس بالكمية أو بالعدد الذي يُورّد من صيد احترافي؛ إنه لحم دلفين يصطاده رجل، وطفق يتلفت حواليه؛ فبحث بين صيادين يجتمعون على ظهر قارب خشبي؛ يتناولون الشاي. قال:

- إنه بين أولئك؛ صاحب قبعة ألياف الدّوم.

قلت في نفسي: «هل يكون هذا؛ هو الذئب الذي يتلصّص، فيُؤذي ضِعاف غنمي؟».

سألت التاجر:

– في أي وقت ينصب صنانيره؟

أجاب، وهو يتناول نقودا مقابل اللحم؛ من أحد المشتهين لأكلة تُحضّر بإتقان:

– قبيل الفجر؛ لعله رصد سربا من الدلافين يرتع في مكان؛ لوجود ما يكفيه.

تركت بائع السمك الذي لم يبال لما تحدثت به إليه؛ لأن هم البيع وقبض المقابل؛ يصرفه عن ما يدور حوله، وغادرت رحاب السوق، وأنا أُفكر في خطة تمكنني من ضبط صياد الدلافين، ثم في الكيفية التي سأردعه بها؛ حتى لا يعود إلى التجسس على لقاءاتي بالدلافين، ويتحين فرصة عودتي لينقضّ على حمائمي بوحشية؛ هل سيكون في خطابي فيه؛ ما يجعله ينظر إلى هذا الكائن البحري؛ بغير أن يظل يوحي إليه بأنه بضاعة تُدرّ مالا؟

ثارت نفسي، وأعماني الغضب عند تساؤلاتي تلك؛ فقد أُقدم على فعل لا ينفع بعده ندم؛ فأملى علي عقلي ما سأقوم به، ولحكمة فيه، ونصيحة.

في فجر اليوم الذي تلى؛ كنت أرسو بقاربي، ولا أبدو للصيادين الذين أبحروا بقواربهم ومراكبهم؛ غير صياد مثلهم؛ تُكسّر محركات الدفع بهديرها السكون الذي يسود في مثل هذا الوقت؛ فجميع هؤلاء توغلوا إلا واحدا منهم؛ كأنه ركن في ناحية، وشرع في مد خيط طويل يطفو بطوافة على السطح؛ تتدلى منه وعلى طوله

خيوط متوازية؛ في كل طرف منها صنّارة فولاذية كبيرة؛ تُنَشِّب في طُعم من سمك السردين، ثم تحرك، والتفت بوجهه إلى الشاطئ، وغادر.

سكنت، ولم آت بأية حركة تُريبه؛ حتى اختفى في ضباب نسيم البحر، وظللت بمكاني حتى أشرقت الشمس، وأُضيئت أرجاء الساحل، ومضت ساعتان؛ فهمزت المحرك؛ فدفعتْ مروحة هذا الأخير القارب، ودنوت بمسافة، وأنا أنظر إلى سطح الماء؛ فرأيته يتغضّن؛ وكان هذا علامة على ما يجري تحته؛ فهي الدلافين تتهالك على الطعم الذي لا تُطعم بعده بآخر؛ لأن الصياد لا يُطعم السمكة مرتين، وحتى أقوم بتحرير الدلافين مما نُشِّب في بلاعيمها وخلال وقت كاف؛ غطست باللباس العازل، وبقِنان الأُكسجين، وبالزعنفتين؛ فما وجدته أراعني؛ قد أُمسِك دُلفينان؛ نظرا إلي بعُيون متوسلة. كان في تخليصهما جهد كبير، ثم جمعت الخيط الرئيس، وخيوط الصنارات النازلة، وكوّمتها، ووضعت كُبّتها على الطوّافة، وعُدت إلى الشاطئ.

في الساعة السادسة هدر محرك من بعيد، وظهر قارب يسرع؛ فلم يكن غير الصياد اللئيم يهمز دابته؛ ليغنم في وقت وجيز؛ لأن ساعة فتح سوق السمك قريبة.لم يجد غير الرسالة التي بعثت بها إليه؛ فبُهت، وطفق ينظر في جميع الاتجاهات، وبما توحي إليه علامات الشاطئ؛ فلم يقف على شيء من ذلك، أو على أحد يشك في أمره. كنت في المركب الحربي أُتابع حركاته؛ من خلال الكوة المستديرة؛ بعدستي المنظار المكبر.

في الغد وفي مثل ذلك الوقت؛ الذي جرت فيه أحداث هي أشبه بممازحة، وبمقلب، وأنا قابع في مركبي تُخفيني صخور رصيف تكسير الأمواج؛ ؛ التقطت عيناي الصياد؛ وهو يتقدم إلى الجهة المعلومة؛ إلا أن في هذه المرة شاهدته ينصب حبالة طويلة، ويُحكم عُقدها بحبال مفتولة بخيوط بلاستيكية بالطوافات، وما إن برح ناحية صيده المألوفة واختفى –وأنا أعلم أنه ما يزال ربما يختفي بين الصخور؛ وظلام الغسق يستر ما يجري في النواحي– زحفت بالقارب مسافة أدنتني قليلا؛ ثم غطست بالمصباح اليدوي؛ كومت الشبكة بالكيفية السابقة، ووضعتها على الطوافة، وانسحبت بانسياب تحت سطح الماء؛ بدون أن أُحدث جلبة.

بعد شروق الشمس؛ لاح شبح يغلفه ضباب كثيف؛ لم يكن غير الصياد الانتهازي؛ أبحر؛ فلم يجد غير الشباك المكومة بعناية؛ أحاطها بذراعيه وبحرص، وقد أدركت أنه يحمد الله أنها ما تزال بحياكتها، ولم تُدمّر خيوطها بفعل جني أو إنسي، وأنها ما تزال في متناوله؛ لم تُفقد.

قررت في اليوم الثالث أن أُنهي هذه الدُّعابة؛ فتوجهت بعد عصر ذلك اليوم إلى المقهى الذي يوجد في الشارع؛ المتعامد مع أرصفة الميناء؛ يرتاده الصيادون؛ ليقصفون فيه، ويُعربِدون، ويتبادلون الحديث في شأن الصيد، وينتظمون في زُمر وعصابات؛ تتواطأ وتتخابر. دلفت إلى الداخل؛ أخطو بتُؤدة؛ مُعتليا قوائمي الطويلة؛ يكاد قميصي بالكُمين القصيرين أن يتفتق بمنكبي العريضين، وبذراعي الصلبين؛ كان يحتل زرقة القميص رسم مرساة؛ يلفها حبل مفتول؛ يعرضه صدري المندفع بقوة؛ فرمقتني العيون بتساؤُل.

أجلت ببصري؛ فرأيت صاحبي يُثرثر في جماعة من نظرائه؛ لَمحني، فكفّ عن الحديث، واستعدّ للنّزال.

بجانب باب المقهى الزجاجي والموارب كرسي شاغر ومائدة؛ لم يرغب أحد فيهما؛ فاتجهت إليهما وجلست. جاء النادل يستحثّ الخَطْو؛ تكلّمت عيناه نيابة عن لسانه؛ طلبت مشروبا. كنت أعرف أن الصياد لم يُسِرّ إلى زملائه ما حدث، ومنْ غريمه. استكان وقتا ليس بطويل؛ وانتظر؛ بعد أن ارتشفت العصير ارتشافتين أو أكثر؛ قصدني بامتثال مُتأدّب وحياني؛ فرددت عليه التحية، وأذنت له بالجلوس. قال:

- الطّهُور ماؤه والحِلُّ ميتتُه؛ البحر.

نظرت إليه محدّقا في وجهه؛ أكاد أن لا أعفو؛ قلت:

- غنمي لا تحلّ لك إطلاقا، وقد آذيتَ، وصفحتُ أنا بدون عتاب.

قال بخُنوع:

- إني أعرفك حق المعرفة.

قلت باستغراب مُصطنع:

- واقتحمت حماي، وفسدتَ فيه، ودأبت على مراقبتي بخداع.

قال بأنفاس تصعد وتهبط:

- إنها الفاقة.

قلت بحدة:

- أطعمْتُ الدلافين، واعتادت هي، وأدمنت المكان؛ فما الحل؟

قال بثبات:

- لا أُتقن عملا غير الصيد.

قلت بمجاز:

– إنهم أبنائي، وقد سرقت البعض منهم، وعرضتهم للبيع في سوق النِّخاسة.

قال باستسلام:

– بما تُفتيني؟

قلت مُذكّرا إياه:

– إنها كائنات ذكية ولطيفة؛ ولا تُؤذي الإنسان، وتجري حروب طاحنة في مناطق أخرى من العالم؛ بين حُماة الطبيعة وبين صيادي الدلافين، وقد صيغت قوانين تحرم صيدها، وقد أُقيم الدنيا وأُقعدها؛ فلا يقرب أحد إليها؛ فابتغ صيدك في غيرها.

قال بسلام:

– كنت من أحسن النصيحة.

قلت بالحُسنى:

– خالطتُ أقواما؛ وجالست جماعات من غير مِلّتِنا، وخُضت في أعماق البحر؛ فتمثلت لي البحار والمحيطات بعظمة تجلت فيها صناعة الخالق سبحانه وتعالى؛ فتهيّبتها؛ فعَلَتْ بي أخلاق، وغدوت أنظر إلى ما يحيط بي بغير العين التي تنظر بها أنت أو غيرك.

ما ظهر في عينيه آيات إكبار، وهزّه انفراج في باطنه؛ مد يده وصافحني بحرارة؛ قال:

– أنا في صفّك، وقد رأيت فيك الرجل المثال؛ فما خاطبتني به تحسيس؛ فلتُسعفنا الأيّام المقبلة بمثل هذا اللّقاء.

قلت بوعد:

- ستجدني حيثما تنقلك قدماك في أرصفة الميناء؛ لا أبرحها إلا لأقوم برِحلة غطس في بيئة تتنوّع فيها الأحياء، وتُبهر الناظر بألوانها وأشكالها؛ فلا تأمرك نفسك إلا بالحفاظ عليها.

قال مُنهيا موضوع حوارنا، وبدون شنآن:

- التفكير في غير ما أقدمتُ على فعله اطمئنان وعزيمة؛ لا أرى إلا أنها ستسْتمرّ .

ودعني وعاد أدراجه؛ إلى جماعته؛ لعل أحدا منهم سأله فيما الخطب، ولا أشك في أنّه تحدث إليهم بما جرى، وكيف أصبح يُشاركني هَمّ المحافظة على الأنواع.

عريش البادية

اِلتقم الحوت يونس عليه السلام؛ ثم لفظه بجسد هُلامي؛ أو كأن لحمه مهروس؛ وذلك بفعل المكث الطويل في ظلمات الكائن البحري، وأظلته، وهو على اليابسة أوراق اليقطين، وقد عاد إلى حالته.

كذلك بلّني ماء البحر، وتخيّلت أنّه ضعْضع لحمي بملوحته، وسرت رعشات في جسدي في فصل بارد، وكلما استرجعت وجودي في أعماق البحر الباردة، وفي آن الحرارة المتصاعدة من سطح أرض متوغل داخل القارة؛ ألهبته أشعة شمس الصيف؛ اشتقت لسفر لا تستعجلُني فيه شؤون الدنيا إلى البلاد التي وُلدت فيها، وتبعد عن البحر بما يكفي من المسافة مما يجعل مناخها قاريا؛ تَهُبّ عليها في الفصل الحار رياح الشرگي؛ المحملة بسُخونة رمال الصحراء الكبرى.

لم أختر من جهات البيت البدوي، وفي شهر يوليوز غير عريش منصوب؛ يتقدمه على الأرضية المقابلة للباب؛ فجلست مُفترشا لحافا منسوجا بخيوط من صوف شياه المنطقة؛ بألوان صباغة النّيلة؛ امتدت أمامي أراضي البادية؛ تكسوها عيدان الجذور الصفراء؛ لم يمر وقت طويل على حصاد سنابلها؛ أطلقت العنان لناظري؛ فساحت في مساحة من أرض لا نهاية لها؛ هواء لاهب يتراقص في أجواء سطحها؛ وانتبهت لما رأيته ودققت فيه النظر؛ هو مرتفعات؛ يُغلفها ضباب السفوح؛ ويُتوّجُها شيء أبيض؛ تبدو من بعيد؛ فسألت؛ فأجابني من نشأ في المكان، واكتشفت عيناه ما يحيط به

وهو يكبر؛ بأنها قمم جبال الأطلس المتوسط؛ ما يزال ثلج الفصل المطير يكسوها؛ فعجبت وسعدت، وأحببت الطبيعة، واطْمأنّت نفسي.

اضطجعت مُسندا هامتي على وسادة؛ يلفحني الهواء الساخن الذي يأتي من كل جانب، وداهمت أنفي رائحة البهائم والأغنام، وسمعت ثغاء هذه الأخيرة يأتي من بعيد، وخوار بقرة، ونباح كلب، وصياح ديك، ومنادات طويلة لبدوي؛ بعُدت المسافة بينه وبين المَنادى، وارتفعت أدخنة الشّواء؛ في تنسُّمِها لذّة؛ حرّكت شهيتنا؛ فعمدْت إلى خبزة؛ قضمت منها مُضغة تمهيدا لما يُطهى على الفحم؛ من لحم ضأن المراعي الطبيعية، وعلت يد نديمي بإبريق الشاي عاليا، وأمال أُنبوبه في اتجاه الكأس البلوري؛ فتدفق الشاي؛ وسمعت خريره، وشممت نسمات نعْناعه؛ فأطربت له. ارتفع قرص الشمس في ظُهر ذلك اليوم، وأدفأت أشعّته الجو، وزارنا نحل جلبه الشاي السُكّري؛ فشاركني نهار مُتعتي بالبادية. بعد الغَذاء سِحت في الأرجاء؛ تاركا لقدمي حرية نقلي في أي اتجاه؛ كأني لا أريد العودة من حيث رجعت إلى مرتع صباي، وأكتئب إذا ما جَذَب تفكيري إلى هناك؛ حيث الساحل؛ هَمٌّ مَا. شاهدت السّحالي والعقارب، وأدمت ساقي نباتات الشوك، ودحرجني الحصى المدملك، وسمعت نقيق ضفادع تسكن أجمة من نباتات السّمّار؛ تُحيط ببرِكة ماء؛ يتدفّق إليها ماء غدير، وعثرت على غشاء أفعى تخلصت منه؛ فتخيلت حفيفها وهي تهُمّ؛ لتلدغ بسم يزيد حدته السخونة السارية في المكان. عثرت في الجهة على حقل نبات الصُبّار؛ فقطفت حبة من تين (النصارى)، ومن شجرة الكرم حبتين

من تين المسلمين؛ هاتان تقطران سائلا سُكّريا؛ استسغت حلاوتهما.

في الليل؛ قمر معلق في السماء؛ يضيء للّذي يتلمّس في مسارب البادية مواطيء قدميه؛ سرحت كذلك بين ما يلوح لي من بعيد من أشباح؛ فهي آكام، وسطوح البيوت، وسياجات ممتدة، وأيكات وكلاب تنبح، وأصنع في مخيلتي صورة ذئب يعوي؛ يرفع خيشومه في اتجاه قرص التّابع؛ يشكو وحشة عزلته؛ إلى ذئاب أخرى تنأى عنه؛ هنالك في قمم الجبال، وفي أوديتها. كان مبيتي بالبادية إذن مُقمرا؛ فتاقت نفسي إلى سماع حكايات؛ مصادرها قديمة قدم الإنسان على الأرض؛ فسُرِدت على مسامعي، وحننت إلى الماضي البعيد؛ كما غيبتني مسافات بمئات الأميال؛ في أرجاء البحار والمحيطات؛ فتأملت؛ فخلُصت إلى أن الإنسان منذ عهوده التي سلفت؛ لم يبق حيث رأى ضياء الشمس، وحبا وتغذى من نباتات الناحية البرية؛ فقد شاهد الأفق، ودفعه الفضول إلى أن يعرف ما بعده؛ فشد الرحال، وما يزال يضرب في الأرض، وهو لا يدري بأية أرض ستموت نفسه، ولم يحرر من الحبل السُّريّ إلا لتبتعد به المراحل والمسافات، وقد زرت بادية صباي في آخر سن التقاعد؛ فندرت نفسي -إذا ما غادرت مرافق القاعدة البحرية وأرصفة الميناء؛ حيث أخطو كل صباح بدأب؛ مُمتثلا للأوقات الرسمية، ومُنفذا لما تُمليه علي مصلحة البلاد العامة- العودة من حيث صدرت إلى الساحل.

تمّ الكتاب.

تمارة: في خريف عام 1446 هـ: الموافق لـ 2024م.

الفهرس

تمرين السباحة الأول 7

الأميرة وجزيرة الماس 15

الحوامة الغارقة 33

قنبلة الرايخ في بحرنا 43

إلى بحر نواكشوط 61

حجرة الضغط الفولاذية.............. 93

انكسار في رصيف (الجرف الأصفر) 103

موجان البحر 113

الدلافين الأحمِّاء 119

عريش البادية 129